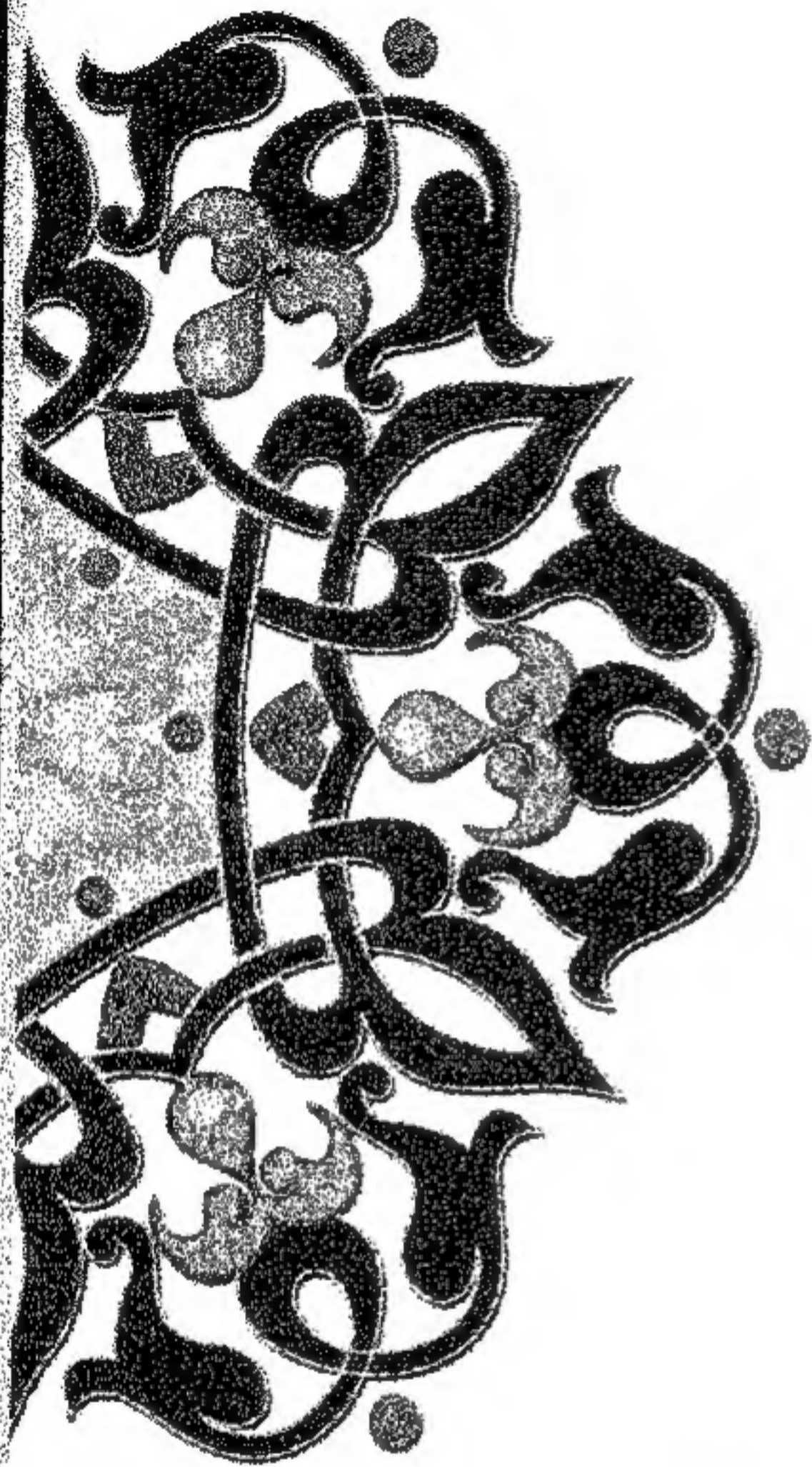


جمال بدوى



الفاطمية

دولة القاريح والتباريح

دار الشروق

الفاطمية

دولة التماريح والتباريح

الطبعة الأولى

لدار الشروق

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيديو المصري -

رابعة العدوية - مدينة نصر

ص. ب: ٢٢ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

جمال بدوى

الفاطمية

دولة التفاريح والتباريح

دار الشروق —

مقدمة

محطات

ليس هذا الكتاب سجلا لتاريخ الدولة الفاطمية التي حكمت مصر زهاء قرنين ، فهناك مئات الكتب التي وضعها المؤرخون - قديما وحديثا - فى تاريخ الفواطم ، ولكنه محطات توقفت عندها وأنا أصاحب هذه الدولة من بدايتها إلى نهايتها . وتركت فى الوجدان المصرى أثارا لا تزال ماثلة فى الثقافة الشعبية ، لعل أسوأها وأشدّها تهافتا ذكريات الكنافة والقطايف والفوانيس التى تقفز إلى صدر الاهتمامات كلما أهل شهر رمضان ، ويغفل الناس عن الدعاوى الدينية والمذهبية التى جاء بها الفاطميون على أسنة الرماح ، وفرضوها على الشعب بمقتضى حق الفتح الذى يعطى للدولة الغالبة سلطة تغيير الموروث الثقافى والاجتماعى ، وما كان للفاطميين أن ينجحوا فى غلبة مصر لولا ضعف النظام الحاكم ، وغفلة الشعب المحكوم ، والفراغ الذى أتاح للعملاء والطابور الخامس أن يمهّد الأرض للجيش القادم ليملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . فامتلات الأرض خللا واضطرابا وإلحادا .

**** إنه درس لا ينبغى أن ننساه .**

وهو أن التهاون فى الدفاع الوطنى ، والاستقلال الذاتى يؤدى إلى ضياع الوطن . . وخضوعه لكل طارق مشبوه .

جمال بدوى

مصر الجديدة - يناير ٢٠٠٤

التفاريح والتباريح

ارتبط تاريخ الدولة الفاطمية في أذهان المصريين المحدثين بالأفراح والليالي الملاح والاحتفالات والولائم وأطاييب الطعام والحلوى، ولا يذكر اسم الفاطميين إلا ويتذكر الناس القطايف والكنافة والخشاف وطبق عاشورة والمسحراتى وفوانيس رمضان ومواكب الأطفال وهم يطوفون الحواري ويرددون كلمات الأغنية المشهورة: وحوى يا وحوى ..

وكأنما كان الفاطميون أهل تفاريح فأرادوا أن يجعلوا من أيام المصريين سلسلة متصلة من الاحتفالات والأعياد .. فإليهم ترجع ظاهرة الاحتفال بالمناسبات الدينية مثل ذكرى المولد النبوى وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان، وكان المصريون، قبل الغزو الفاطمى، مثل سائر الشعوب الإسلامية لا يقيمون لهذه المناسبات طقوساً أو مهرجانات .. وإذا احتفلوا بها ففى إطار الوقار الذى تفرضه طبيعة المناسبة الدينية مثل تلاوة القرآن أو ترديد الأدعية . فلما جاء الفاطميون جعلوا منها فرصة للتفاريح وخرجوا بها من المسجد إلى الشارع واصطنعوا لكل مناسبة نوعاً خاصاً من الحلوى، وكان الخلفاء الفاطميون ووزرائهم ووجوه دولتهم يحرصون على حضور هذه الاحتفالات فى الجامع الأزهر حتى

يضيفوا عليها اهتماما رسميا ولكي يقلدهم من هم أدنى منهم منزلة، بل ابتدع الفاطميون مناسبات لم يكن للمصريين بها سابق احتفال مثل يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر المحرم الذي يصادف ذكرى مصرع الإمام الحسين رضى الله عنه، فى كربلاء، ومع أن الشيعة جعلوا من هذه المناسبة مأتما وذكرى لاجترار الحزن والأسى، فقد جعل المصريون منها مناسبة للاستمتاع على طريقتهم بطبق خاص من الحلوى أطلقوا عليه اسم المناسبة نفسها. ولم يسمحوا لأنفسهم بتعذيب أنفسهم كما يفعل الشيعة فى كل مكان تكفيرا عن جريمة التخلّى عن الحسين.

لم يكن الفاطميون أهل فرح ومرح ولهو وعبث، كما يتبادر إلى الذهن، وكان المعز لدين الله رجل دولة من الطراز الأول، وإلا ما كان له أن يقيم هذه الإمبراطورية الشيعية التى انطلقت من المغرب إلى مصر ثم الشام ويسطت نفوذها على أرض الحرمين الشريفين، وتردد ذكرها فى بعض الأوقات على منابر بغداد. وزاحمت دولة الإسلام السنية التى ورثت ملك العباسيين، وطمحت الفاطمية إلى إزالة هذا الملك الكبير لتقيم على انقاضه دولة الشيعة ويتحقق الحلم الذى ظل يراود أحلام الفرق الشيعية على امتداد القرون والأعوام... نعم... لم تكن دولة الفاطميين دولة تفاريح، لكنها جعلت من التفاريح ستارا يخفى حقيقة أمرها، ويغضى مراميها وأهدافها البعيدة. ولا تنس أن الدولة الفاطمية، منذ نشأتها فى المغرب، كانت ثمرة دعوة سرية يغمرها الخفاء والإبهام، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي شخصية غامضة اضطربت الأقوال فى صحة نسبه إلى أهل البيت، وكان

التنظيم السرى الذى أقامه مؤسسو هذه الدولة فى المغرب هو قوام نشأتها . . وظل الطابع السرى ملازماً لها حتى بعد انتقالها إلى مصر ، ونشأ عن ذلك تناقض فى كيان الدولة ، فالنظام الحاكم ينتسب إلى الفكرة الشيعية سياسياً ودينياً ، بينما الشعب المصرى منى خالص . . فكان على نظام الحكم الجديد أن يخفى هويته وحقيقة أمره عن الشعب الذى يخالفه فى المذهب والعقيدة .

وكانت الاحتفالات والسهرات والولائم والمطاعم هى إحدى وسائل الخفاء والتمويه التى استخدمتها الدولة الفاطمية لإغراء المصريين وإغراقهم فى المظاهر الاحتفالية حتى ينصرفوا عن البحث فى طبيعة النظام الجديد وأهدافه ومراميه . . وحرص الفاطميون فى أول عهدهم بمصر على الظهور بمظهر التسامح الذى لا يفرق بين مذهب ومذهب وضمّنوا بياناتهم الأولى إلى الشعب المصرى عبارات براءة ترتفع فوق مستوى الخلافات الدينية والصراعات المذهبية ، ولو رجعت إلى البيان رقم واحد الذى أذاعه قائد الحملة جوهر الصقلى لوجدته مزيّناً بهذه المبادئ الإسلامية السامية التى تتحدث عن وحدة الشريعة وضرورة اتباعها ، ويلتزم فيها بأن يترك المصريين على مذهبهم ولا يتدخل فى شئونهم الدينية ، وهو يخاطب المصريين بصريح العبارة بأن خطة الدولة الجديدة تقوم على : «إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة - رضئ الله عنهم - والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار (يقصد فقهاء المذاهب السنية) الذين جرت الأحكام بمذاهبهم

وفتواهم، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره
وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه، ونصه
نبيه ﷺ في مسته . . إلخ» .

برنامج عمل:

فأنت ترى في بيان «جواهر» برنامج عمل الدولة الجديدة، ومنهج
سياستها الدينية القائم على أساس من الحرية وعدم التعرض للأمور
الدينية، والأصول الفقهية التي رسخت في مصر منذ دخلها الإسلام،
بل إنه يحرص على أن يتحدث عن صحابة رسول الله ﷺ في إطار
من الوقار . وهي لهجة جديدة وغريبة على التقاليد الشيعية التي
جعلت من سب السلف شعيرة يلتزم بها الخطباء على المنابر، ويؤكد
أنه لن تجرى أى تغييرات على صيغة الأذان، فقد كان الشيعة يضعون
الأذان بعد الشهادتين عبارة الشهادة بأن عليا حجة الله وولى الله .

وعبارة (حى على خير العمل) بدلا من عبارة (حى على الفلاح)
وكانت هذه التغييرات فى صيغة الأذان سببا فى مشاحنات
ومصادمات بين الشيعة وأهل السنة داخل المجتمعات الإسلامية .

ولكن النظام الجديد - كأي نظام جديد - لم يلتزم بعهوده بعد أن
ثبتت أركانه . . ولم تلبث الدولة الفاطمية أن تخلت عن وعودها
وبدأت تتدخل فى الشؤون الدينية وتعمل بكل ما لديها من قوة على
استمالة المصريين إلى المذهب الرسمى للدولة، وعلى تغيير البنية
المذهبية حتى يصبح الشعب المصرى على دين ملوكه . . شيعيا

إسماعيليا باطنيا (!!) وأخذ العمل فى تدعيم الصبغة المذهبية يجرى وفق خطة وثيدة وبطيئة حتى لا تتصادم الدولة مع المشاعر الدينية لدى الشعب المصرى . وكان الفاطميون يعلمون جيداً أن طبيعة المصريين تختلف عن طبيعة البربر الذين نشأت فيهم الدعوة الإسماعيلية فتقبلوها بغير كبير من العناء . أما المصريون فهم أصحاب باع قديم فى مجال الفكر الدينى ، فمصر عرفت التدين منذ فجر التاريخ الإنسانى ، واختلطت باليهودية طوال إقامة بنى إسرائيل فى مصر إلى حين خروجهم بقيادة نبي الله موسى عليه السلام ، واعتنقت مصر المسيحية ثم الإسلام ، وباتت لديها خبرة فى شئون العقائد مما جعل مهمة الدولة الجديدة ليست بالسهولة التى كانت عليها المجتمعات البدائية فى المغرب ، وكان على الفاطميين أن يتحسسوا طريقهم إلى النفس المصرية فى حذر ، ولا يكشفوا عن حقيقة أمرهم دفعة واحدة ، ولجئوا فى ذلك إلى خطط وبرامج تتسم بالدهاء والمكر والقدرة الفائقة على التمويه فنجحوا فى ذلك إلى مدى بعيد . . ومع ذلك لا يستطيع مورخ أن يزعم أن الفاطميين نجحوا فى إخراج المصريين من كهف السنة إلى كهف التشيع ، ولكن النجاح المقصود يتمثل فى توطيد أركان دولتهم وتثبيت جذورها وتوسيع نفوذها وبقاء سلطانها لمدة تزيد على قرنين . . هذا هو مظهر النجاح الذى حققه الفاطميون ، وهو بلا شك نجاح غير منكور ، ولكنهم فى النهاية لم يصلوا إلى غايتهم النهائية وهى تحويل المصريين إلى خندق الشيعة ، وليس أدل على ذلك من أن هذه الحقبة الطويلة التى عاشتها الدولة الفاطمية لم تثمر تحولا مذهبيا فى الشارع المصرى بالرغم من أساليب الدعاية الجبارة وأفانين المغريات التى قدمها الفاطميون . . لقد أكل المصريون الكنافة

والقطايف والخشاف وحلاوة المولد وذرفوا الدموع على مصرع الحسين . وعملوا فى خدمة الدولة ومؤسساتها وإداراتها ومصالحها وقبضوا مرتباتها . . ولكنهم وقفوا موقف المستريب من فكرها وعقيدتها ومذهبها ، خاصة فى المرحلة التى كشف فيها النظام عن صبغته المذهبية ، وخلع النقاب عن حقيقة دعوته السرية . . وعندما بلغ الصدام بين الدولة والشعب درجة التلاحم بالخناجر والبلط فى شوارع القاهرة .

الإمامة الدينية:

كانت الدولة الفاطمية ذات أيديولوجية خاصة تختلف عن التراث الفكرى الذى كان موجودا فى مصر ، فالمصريون منذ اعتنقوا الإسلام وهم جزء لا يتجزأ من جمهور أهل السنة الذى جعل من الخلافة نظاما سياسيا للحكم . . وجعل من البيعة أساسا لاختيار الخليفة دون نظر إلى نسبه أو حسبه . . أما الدولة الفاطمية فقد شادت سلطانها السياسى على أساس «الإمامة» الدينية التى جعلت منها النظرية الشيعية حجر الزاوية فى شئون الدين والسياسة والفقه ، «فالإمامة» هى أهم مبادئ الدعوة الشيعية وأساس قواعدها ، وملاذها الذى انضوت تحت لوائه . وحاولت أن تؤكد بسائر الوسائل الروحية والمذهبية ، ولم تدخر وسعا فى أن تستمد أسانيدها من القرآن ذاته ، ومن الأحاديث النبوية ، لتسيغ بذلك على مسألة «الإمامة» جوا من القدسية يسمو إلى مرتبة النبوة ذاتها ، مثال ذلك أن أول دعاء دُعى به للمعز لدين الله فى أول جمعة رسمية أقيمت فى سنة ٣٥٨هـ عقب

الفتح الفاطمي في الجامع العتيق (مسجد عمرو بن العاص) كان نصه : «اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة . وسلب العزة الهادية ، عبد الله الإمام معد أبي تميم المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، كما صليت على آباء الطاهرين ، وأسلافه الأئمة الراشدين» .

وقد عمل فقهاء الشيعة ودعاتها على أن يخلقوا هذا الجو القدسي حول الإمامة بما وضعوه من الكتب والرسائل العديدة . وعندما جاء الفاطميون إلى مصر وضعوا نصب أعينهم صبغ المجتمع المصري بهذه الصبغة المذهبية الغريبة عليه ، فلم يصبح (الخليفة - الإمام) مثل غيره من خلفاء الدولة العباسية أو الأموية ، ولكنه أصبح «إماما» اجتمعت فيه الرياستان الزمنية والدينية . وعندما وطأت قدما المعز لدين الله أرض الإسكندرية حرص على أن يبدو في سميت «الإمامة» منذ اللحظة الأولى ، وقال لوفد المصريين الذي خف إلى لقائه : «إنه لم يسر لازدياد في ملك ولا رجال . . ولا سار إلا رغبة في الجهاد ونصرة المسلمين» ونراه في مواكبه وشعائره الدينية حريصا على مظاهر الإمامة ، يبدو إماما دينيا أكثر منه ملكا سياسيا ، وقد سجل الفقيه الحسن بن زولاق المصري ، صديق المعز ومؤرخ سيرته ، كثيرا من هذه المظاهر ، يبدو فيها المعز إماما وافر التقى والورع ، يؤم الناس للصلاة ، ويعظهم خاشعا باكيا ، وقد حرص أبناء المعز وأحفاده ، مع بعض الاستثناءات على هذه المظاهر ، في مواكبتهم وأعمالهم الدينية والرسمية .

وكان على دعاة المذهب الإسماعيلي أن يعملوا على تسريب معالم الدعوة المذهبية الجديدة إلى الشارع المصري شيئا فشيئا ، وكان الأزهر

أداتهم الرئيسية في ذلك وقد كان الهدف الأساسي من بنائه أن يكون مؤسسة لنشر أفكار الدعوة الإسماعيلية على جماهير القاهرة . . . وقد جاء الفاطميون وفي صحبتهم كبار الدعاة الذين عاصروا نشأة الدولة في المغرب وعلى رأسهم الفقيه الكبير أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور المعروف بابن حيّون التميمي القيرواني ، وهو بالطبع غير الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان فقيه أهل السنة المتوفى في بغداد عام ١٥٠ هـ . . . بينما نحن نتحدث في أواسط القرن الرابع الهجري ، والأرضية التي هي مجال حديثنا هي مصر والمغرب ، وكان ابن حيّون قد خدم عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ثم أبناءه الخلفاء من بعده ، وقدم في ركب المعز لدين الله إلى مصر ، وتولى مرتبة الدعوة والقضاء في عهده ، وكان من أكابر فقهاء الشيعة إلى جانب كونه أوثق أصدقاء المعز ومستشاريه ، وقد ألف كتباً عديدة في فقه الشيعة ، ويعتبر كتابه «دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام» هو متن الفقه الشيعي في ظل الدولة الفاطمية (مثلما كانت اجتهادات سميّة أبي حنيفة النعمان متن الفقه السني في عصر الرشيد) بل لا يزال حتى اليوم هو المرجع الفقهي لطائفة البهرة . . . وكان هذا الفقيه الشيعي الكبير يتصدر ساحة الأزهر ليلقي على الناس مبادئ الفكر الجديد فيتحدث طويلاً عن ولاية الأئمة ومنزلتهم ووصاياهم ، ويورد للناس طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعم أفكاره في مسألة الولاية أو الإمامة وكيف أنها خصت بعلي بن أبي طالب وبأبنائه من آل البيت وكيف أن الإمامة قد استقرت بالنص من رسول الله على إمامة علي ونصبه إياه ، ثم يصف الأئمة بأنهم «خلق من خلق الله ، وعبيد مصطفىون من

عباده، افترض طاعة كل إمام منهم على أهل عصره، وأوجب عليهم التسليم لأمره، وقرن طاعتهم فى كتابه بطاعته، وطاعة رسول الله، وهم حجج الله على خلقه وخلفائه فى أرضه.

مرتبة النبوة:

والمؤرخون المعاصرون الذين عكفوا على دراسة المذاهب الشيعية لا يختلفون على أن «الإمامة» تقترب فى الفكر الإسماعيلى بمرتبة النبوة ذاتها، تنسب للإمام، كما نسبت إلى النبى معجزات وأعمال خارقة لا يأتيا البشر، فمن ذلك ما رواه الداعى الإسماعيلى المعروف عماد الدين إدريس فى كتابه «زهر المعانى» فى حديثه عن الإمام إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، والذي تفرعت منه الدعوة الإسماعيلية وتتسبب إليه، فيقول عن إسماعيل هذا إنه توفى ودفن، ثم ظهر حيا بالبصرة، «وأقبل إليه الناس يهرعون، وهم يقولون: هذا إسماعيل بن جعفر عاد حيا» وإنه مسح بيده المباركة على ظهر شيخ مريض، فبرئ من علته، وشاهد الخلق ذلك، وغاب عنهم، يقول الداعى المذكور: «فكان ما أظهره إسماعيل - عليه أتم الصلوات - من الغيبة والظهور بعد ذلك كما فعل جده الناطق المرسل محمد ﷺ». فأظهر الإمام إسماعيل ما أظهره إعجازا للخلائق، بظهور القدرة من الله تعالى، وبقاء الكلمة فى عقبه الطاهرين من بيته» ثم يقول: «ومثل هذه المعجزات العظيمة، التى تقصر عن معرفتها العقول، ويتيه فيها مع السائل المستول، يظهرها العقل الأول الذى هو الإبداع الأول بهم، لتظهر القدرة للعارفين».

تراث الفلسفة،

فهذه المعجزات التي ينسبها الإسماعيليون إلى عميدهم إسماعيل بن جعفر، تذكرك على الفور بالمعجزات التي ذكرها القرآن الكريم عن المسيح عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى، وأبرأ الأكمة والأبرص، وتذكرك بفكرة الرجعة التي ذكرها القرآن الكريم عن أصحاب الكهف وعن أحد أنبياء بني إسرائيل الذي مَرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه... إلخ.

وقد أفاض مؤرخو المذاهب في شرح أبعاد المذهب الإسماعيلي والمصادر التي استقى منها وهي في معظمها مصادر غير إسلامية، وكيف تأثر بالمذاهب الفلسفية للتراث اليوناني ومدرسة الإسكندرية وخاصة مذهب أفلوطين مؤسس الأفلاطونية المحدثة.

وقد اجتذبت الدعوة الإسماعيلية عددا كبيرا من مؤرخي الفرق والمذاهب. ويعود ذلك إلى الغموض الذي اتسمت به هذه الدعوة منذ نشأتها، فمن المؤرخين المسلمين عبد القاهر البغدادي صاحب كتاب (الفرق بين الفرق) والشهرستاني صاحب كتاب (الملل والنحل) كما تناولهم الإمام الغزالي في كتابه (الرد على الباطنية) ووضع المؤرخ المقرئ كتابا خاصا عن خلفاء الفاطمية سماه (اتعاظ الخلفاء بأخبار الأئمة الخلفاء)، فضلا عن تعرضه لهم في موسوعته الخطط والآثار. ومن أبرز المستشرقين الذين تخصصوا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية الباحث الروسي إيفانوف الذي وضع أكثر من مؤلف في الفكر

الإسماعيلي فيما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٥٢ ، وكذلك المستشرق الشهير جولدتسيهر ، والباحث الإنجليزي برنارد لويس الذي ألف كتاباً خاصاً عن فرقة الحشاشين وهم أحد فروع الدوحة الإسماعيلية . ومن المؤرخين المحدثين الذين يتسبون إلى المذهب الإسماعيلي الباحث السوري الدكتور مصطفى غالب ، وإليه يرجع الفضل في إمالة اللثام عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية ، وكشف الغموض الذي اكتنفها على مدى القرون السالفة ، وقدم في ذلك عدداً من المؤلفات المستقاة من المخطوطات الإسماعيلية القديمة .

كما حظيت الدعوة الإسماعيلية باهتمام عدد كبير من العلماء المحدثين منهم الدكتور محمد كامل حسين ، الذي نجح في تحقيق وتقديم بعض تراث الفكر الإسماعيلي ، وكذلك الدكتور عبد المنعم ماجد ، والدكتور أبو زهرة ، والدكتور عبد المنعم النمر ، والدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور محمد مصطفى حلمي ، ولكن سوف أتوقف عند مؤلفات المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان الذي عني بتاريخ الدولة الفاطمية ، وأصدر فيها العديد من الكتب والرسائل العلمية ، فهو يستخلص من أقوال دعاة الإسماعيلية وشروحاتهم أن الإمامة لم تكن فقط مسألة رياضية دينية وسياسية يتنازعها فريقان من الأمة الإسلامية ، وإنما كانت بالعكس ، في زعمهم ، إرادة إلهية ، قررها كتاب الله وأيدها رسوله بما روه من «أحاديث» لا نهاية لها .

وأن خلاصة نظريتهم ، من الناحية العملية ، هو أن تراث النبي العربي ، لم يكن تراث أمة هداها الله إلى الإسلام ، وتراث رياضية معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية ، وإنما كانت تراثاً شخصياً ، وميراثاً

خالصا لأسرة النبي ، صاحب هذه الرسالة ، وأن النبي أوصى بهذا التراث إلى ابن عمه علي بن أبي طالب ، زوج ابنته فاطمة الزهراء ، وبنيه من بعده ، أبناء ولديه الحسن والحسين . وهكذا تغدو رئاسة الأمة الإسلامية في نظرهم ، ووفقا لتأويلاتهم ورواياتهم ، ميراثا خاصا ، لا يليها «حتى يوم القيامة» أحد سوى آل البيت .

الأزهر.. الأثر الباقي

لا يجوز الحديث عن مصر الفاطمية بغير الحديث عن الأزهر، تلك المؤسسة الدينية الكبرى التي قامت لتكون جامعا ثم لم تلبث أن صارت جامعة.. . بقيت على مدى ألف عام أعرق وأضخم جامعة في عالم الإسلام تحتضن الباحثين عن العلم من شتى أنحاء العالم. ويتولى التدريس فيها أعظم الفقهاء والعلماء.. . هذا هو الأزهر منذ بناء جوهر الصقلي غداة وصوله إلى مصر ليكون مسجدا رسميا لسيده ومولاه المعز لدين الله. ومركزا لنشر المذهب الشيعي، المذهب الرسمي لدولة الفاطميين، وبقيت هذه العلاقة الحميمة بين الأزهر ومؤسسة الحكم في مصر لصيقة بالأزهر وعلامة بارزة من علاماته، فهو مركز الافتاء الرسمي، وبؤرة التشريع والتقنين والناطق الديني باسم الحاكم، ويبقى الأزهر يقوم بهذه المهمة الرسمية حتى بعد أن زالت دولة الفاطميين وجاءت بعدها دول ورجال وظل الأزهر مرتبطا بالجالس على العرش سواء كان خليفة فاطميا، أو سلطانا أيوبيا، أو أميرا مملوكيا أو واليا عثمانيا، أو ملكا برلمانيا، أو رئيسا جمهوريا.. . فالأنظمة تتغير.. . والوجوه تتبدل.. . ولا يتغير الأزهر ولا يخرج عن نطاق المهمة الرسمية التي حددها له جوهر الصقلي في الثلث الأخير

من القرن الرابع الهجرى . . لقد قامت من قبله مساجد ، وقامت من بعده مساجد ولكنها لم تصل جميعا إلى مستوى المكانة التى بلغها الأزهر .

لقد ترسخت مكانة الأزهر فى مصر والعالم الإسلامى كمؤسسة علمية ودينية مع توالى العصور والقرون ، وآلت إليه الزعامة الفكرية والثقافية فى الوقت الذى أقل فيه نجم الحضارة فى مواقع كثيرة ، واستطاع الأزهر أن يجتاز الكبوة التى تعرض لها خلال العصر الأيوبى ، وسرعان ما استرد مكانته العلمية والأدبية واستأنف رسالته العظمى فى تخريج العلماء والأدباء والفقهاء .

تلاحظ الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها (مساجد مصر) أن هذه المكانة بلغت ذروتها فى العصر المملوكى ، إذ يحتوى القرن الثامن الهجرى على أنباء تدل على أن الأزهر كان يتمتع فى ظل دولة المماليك برعاية خاصة ، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاء والنفوذ ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد ، وكان هذا النفوذ يصل أحيانا إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا ، وأحيانا فى مصاير العرش والسلطان ، ولا تنس أن الحكام المماليك لم يكونوا عربا . . ولا مصريين . . وأنهم وفدوا على مصر وهم لا يتكلمون العربية . . فكان عليهم أن يعرضوا هذا النقص عن طريق تدعيم المؤسسات الدينية . وتشجيع الحركات الثقافية والفكرية حتى يتقربوا إلى الشعب الذى يحكمونه ، ولذلك يرى مؤرخو الأزهر أن فترة الحكم المملوكى هى فى الواقع عصر الأزهر الذهبى من حيث الإنتاج العلمى الممتاز . ومن حيث تبوئه مركز الزعامة والنفوذ . . .

وما ظنك بجامع - أو جامعة - يتولى التدريس فيها علماء ومؤرخون من طبقة ابن خلدون والنويرى والقلقشندي والسيوطي ، ولن أحدثك عن علماء الشيعة . الذين قاموا بمهمة التدريس في الأزهر عند إنشائه ، فهؤلاء لهم حديث آخر . . ولكني أتحدث إليك الآن عن التطور العلمي لهذه المؤسسة الإسلامية العريقة ، وما قامت به من أمجاد في الأوقات التي خبا فيها نور الثقافة العربية بل حمل الأزهر مشعل العلم والحضارة قبل أن تقوم مراكز العلم والحضارة في أوروبا ، فجامعة باريس لم تنشأ إلا بعد قرنين من قيام الأزهر ، وجامعة أكسفورد بعد ثلاثة قرون ، وجامعة لوفان في بلجيكا قامت بعد خمسة قرون . . وهكذا كان للأزهر دور الريادة في عالم الثقافة والتنوير . . ويطول بنا الحديث لو تمادينا في رواية أمجاد الأزهر العلمية والدينية ، وهو يخرج عن نطاق حديثنا الذي ينحصر في دور النشأة . .

دولة مذهبية:

لقد سبق أن قلت لك إن الدولة الفاطمية كانت دولة مذهبية ، لأنها كانت تعتنق مذهب الشيعة الإسماعيلية الذي يختلف تماما عن مذهب أهل السنة الذي يسير عليه أهل مصر ، وكان الفاطميون يطمحون إلى قيام نظام سياسي ومذهبي في مصر مما يتطلب قيام مؤسسات ثقافية وإعلامية تقوم بمهمة ذبوع مذهب الدولة الرسمي وكسب القلوب حوله ، وكان لابد أن يقوم الأزهر - الجامع - ليحمل مهمة الدعوة للمذهب الجديد ، تماما كما يحدث عقب وقوع انقلاب في نظام الحكم ، فيكون أول شيء يفعله النظام الجديد هو الاستيلاء على الإذاعة لكي

يحتكر قناة الاتصال بال جماهير . . ولم تكن في مصر إذاعة حتى يستولى عليها الحكام الفاطميون ، فكان عليهم أن يقيموا مسجدا جامعاً يتحدثون فيه إلى الناس عن دعوتهم الجديدة ، ويعملون على كسب ولائهم واستقطابهم لتأييد النظام الجديد ، وكان أول شيء فعله جوهر بعد الفراغ من بناء القصر الكبير أن وضع حجر الأساس في بناء الأزهر في يوم السبت ٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ الموافق الثاني من إبريل سنة ٩٧٠م . كما ورد في المقرئزي . وتوخى جوهر أن يكون المسجد في موقع يتوسط العاصمة الجديدة - القاهرة - على النحو الذي كان سائداً في عمارة الخواضر الإسلامية . واختيار جوهر مكاناً بالقرب من القصر الكبير وإذا أردت أن تعرف موقع هذا القصر فما عليك إلا أن تنظر إلى مسجد سيدنا الإمام الحسين ، فتعلم أن هنا كان موقع القصر الكبير . وتعلم أيضاً أن رأس الإمام الحسين عندما نقل من عسقلان إلى مصر في أواخر العصر الفاطمي أنزل في أول الأمر إلى حديقة القصر . ثم حمل في السرداب إلى قصر الزمرد . ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة . وكان ذلك في خلافة (الفاتر) الفاطمي سنة ٥٥٤هـ ، وبقي الرأس مدفوناً في قصر الزمرد حتى أنشئت له خصيصاً قبة هي المشهد الحالي الذي تراه الآن : لقد زال القصر وبليت أطلاله . . وبقي مشهد الحسين حيث هو . .

فقه الشيعة:

ومعنى ذلك أن جوهر أثر أن يكون الأزهر على مقربة من قصر الحكم حتى يكون في استطاعة الخليفة أن يباشر عن قرب ما يجري في

الأزهر . ولا يتجشم في سبيل ذلك مشقة الانتقال . وأتم جوهر تشييد المسجد بعد عامين . وأقيمت فيه أول صلاة جمعة يوم ٦ رمضان سنة ٣٦١هـ الموافق يونيه ٩٧٢م . ولقد لاحظ المصلون أن أول خطبة أقيمت على منبر الأزهر تضمنت تغييرات مهمة في متن الخطبة . الأمر الذي يعكس تغييراً مهماً في نظام الحكم . فالمعروف في التقليد الإسلامي أن الدعاء للحاكم في خطبة الجمعة يمثل اعترافاً بشرعية الحكم . وتغيير اسم الحاكم يستتبعه بالضرورة قطع الدعاء له . والنداء باسم الحاكم الجديد . وهذا ما حدث في أول خطبة استمع إليها الناس من فوق منبر الأزهر . فقد أمر جوهر بقطع الدعاء للخليفة العباسي . وكانت مصر حتى ذلك الوقت تعترف بالتبعية إلى خليفة بني العباس ، وكان عليها أن تعترف الآن بخلافة الحاكم الفاطمي : المعز لدين الله . ولم يقتصر التغيير في الخطبة على ذلك ، وإنما أمر جوهر بأن يقال في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . كما أضاف إلى الأذان عبارة « حي على خير العمل » وكل هذه الإضافات هي من تقاليد الفكر الشيعي . . الفكر الرسمي لدولة الفواطم .

وبعد حضور المعز لدين الله إلى مصر ، بدأ الأزهر يباشر مهمته في الدعوة إلى المذهب الجديد . وجلس قاضى القضاة أبو الحسن بن النعمان في صحن الأزهر يقرأ مختصر أبيه (أبو حنيفة النعمان بن حيون) في فقه الشيعة ، وحضر الدرس جمع حافل من وجوه الدولة

وعلمائها، وأثبت القاضي أسماء الحاضرين، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالأزهر. وبعد وفاة المعز، اقترح الوزير الخطير يعقوب بن كلس على الخليفة الجديد «العزیز»، أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يعقدون مجالسهم بالأزهر بعد صلاة الجمعة إلى صلاة العصر، وكان عددهم ٣٧ فقيها، ورتب لهم مرتبات شهرية ثابتة وجرايات حسنة، وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر، فكانت هذه أول خطوة لاستغلال الأزهر كمعهد لتدريس الفكر الشيعي إلى جانب كونه مسجدا لإقامة الصلوات. وكان هؤلاء الفقهاء الذين لا يزيد عددهم على ٣٧ دارسًا هم النواة الأولى لأفواج الدارسين بالجامعة الأزهرية، وعلى مر العصور سار الأثرياء والأمراء والكبراء على نهج الخلفاء الفاطميين، فتنافسوا على إقامة حلقات الدرس وتشيد الأروقة للمجاورين - طلبة الأزهر - وفرشت الأروقة بما يلزمها من بسط، وصارت مساكن يأوي إليها طلاب العالم. وأعدت بجانبها محلات للغسيل وأخرى للوضوء وغيرها لطبخ الطعام، بحيث لا يحتاج الطالب إلى مغادرة الأزهر إلا نادراً، فهو دائماً منكب على التعليم، وكان في ذلك تشجيع لأبناء الشعوب الإسلامية على المجيء إلى مصر، فكنت ترى الكردي إلى جانب الهندي، والسوداني والأفغاني والحبشي بجانب التركي والمصري والمغربي والجاوي والشركسي والشامي. تسودهم جميعاً رابطة الدين والإخاء، وعلى مر السنين كثرت الأروقة، فمن الأروقة المصرية رواق الصعايدة، ورواق البحاروة، ورواق الحنفية، ورواق الشراقوة، ورواق الختابة، والرواق العباسي، وكان هناك رواق خاص للعميان لا يسكنه إلا مكفوفو البصر وشيخهم منهم.

وهكذا نما الأزهر كجامعة عالمية جعلت من مصر قبلة العلماء، وموئل الفقهاء، ومشعل الحضارة. ويمكن القول إن تطور الأزهر واتساع رسالته، على المستوى العالمى كان يراود خاطر مؤسسيه الفاطميين، فقد كانوا أصحاب دعوة عالمية تخرج عن نطاق مصر المحلى وتتعداها إلى ما سواها من أقطار إسلامية، وليس من شك فى أن بناء الأزهر الأوائل كانوا يعملون بكل همة على تشييع المجتمع المصرى، وكانوا يتوسلون لغزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية، ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية وغزو العقول بطرق منظمة فهى خير وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة، وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى ونجحوا فى الاستيلاء على مصر، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حماية ثمرتهم وتدعيمها، وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صيغة رسمية، ومنذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة نراها تتنظم فى القصر الفاطمى، وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم أهل البيت - علوم الشيعة - والتفقه فيها. وكان يقوم بالقاء هذه الدروس المذهبية فى زمن المعز والعزى بنو النعمان، وهم أسرة مغربية متخصصة فى الفقه الشيعى صاحبت الغزو وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن، وكانت هذه الدروس تلقى أحيانا فى القصر، وأحيانا فى الجامع الأزهر، وأحيانا كان يشترك فى القائها بعض عظماء الدولة مثل الوزير يعقوب بن كلس، فقد كان يتولى قراءة علوم الشيعة وشرحها للكافة بنفسه، وله فى الفقه الشيعى رسالة مشهورة تعرف بالرسالة (العزيزية) نسبة إلى الخليفة العزيز، ويشير

المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية إلى إقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس المذهبية، فيقول: إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المعتاد، فمات فى الزحام أحد عشر رجلا فكف عنهم العزيز بنفسه .

دارالحكمة،

ومع تطور الدعوة الفاطمية وتطرفها العقائدى لم يعد الأزهر يفى بالحاجة إلى تخريج دعاة مدرّبين على اختراق الحواجز المذهبية والدينية لدى الناس المطلوب تجنيدهم لخدمة الدعوة السرية، وأصبحت الحاجة ملحة لإنشاء مؤسسة سرية تكون مهمتها إعداد هؤلاء الدعاة المتخصصين خصوصا عندما جاء الحاكم بأمر الله إلى الحكم وكشف عن وجهه القبيح ودعا الناس إلى تأليهه، فأنشأ الحاكم (دار الحكمة) لتقوم بهذه المهمة الخاصة إلى جانب المهمة العامة للأزهر . . . ويمكنك أن تقول إن الأزهر كان أشبه بالجامعة . . أما دار الحكمة فكانت بمثابة مؤسسة للدراسات الأكاديمية أو الدراسات العليا التى لا يقربها إلا من أوتى حظا كبيرا فى علوم الدعوة الجديدة أى (تأليه الحاكم).

لقد أنشأ الحاكم بأمر الله مؤسسته الجديدة بجوار القصر الغربى الصغير وفتحت أبوابها لروادها يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ بعد أن فرشت وعلقت الستائر على جميع أبوابها وعمراتها، ورصد لها جمع من الموظفين والخدم ليقوموا على خدمة الدارسين والأساتذة، وقد هيئت لهم المرتبات والأرزاق، وأعدت

لهم مكتبة ضخمة نقلت إليها الكتب من خزائن القصر الملكي في سائر العلوم والآداب مما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قبل قط، وأودعت بها كتب التشيع، فضلاً عما يحتاجه الدارسون من أقلام وأوراق وأحبار، وأوقف الحاكم على دار الحكمة أوقافاً تنفق غلتها على مصالحها. ويحدد الدكتور أحمد أحمد بدوي ثلاثة أهداف من إنشاء هذه الدار، أولها: أن تكون سجلاً للحركة الفكرية، فتحفظ بها الكتب والمحاضرات ليستطيع من يشاء أن ينهل منها، وأن يعود إليها في البحث والدراسة. . ثانيها: تثقيف القضاة بدراسة الفقه الشيعي دراسة واسعة، وهؤلاء يدخلون دار الحكمة بعد أن يتموا دراستهم بالأزهر. . ثالثها: تعليم رجال الدعوة حتى ينهضوا بعبء نشرها في أرجاء الإمبراطورية الفاطمية، فكانوا يدخلون الدار بعد أن يكونوا قد درسوا في الأزهر. . النحو والفلسفة والمنطق والتنجيم، وكان أمر تثقيف هؤلاء موكولاً إلى داعي الدعوة، يجتمعون إليه ويتكلمون. . في العلوم المتعلقة بمذهبهم، والداعي رجل عالم في جميع مذاهب أهل البيت، يقرأ الدرر على فقهاء الدولة، وبين يديه من نقباء المتعلمين اثنا عشر نقيباً، وله نواب في سائر البلاد كنواب قاضي القضاة، وأن هذه الأهداف لتدلنا على أن الغرض الذي أنشئت له دار الحكمة إنما هو نشر تعاليم الشيعة في الناس بطريقة علمية منظمة.

أهل الثقة:

وهذه الطريقة المنظمة تكشف عن الجانب المستور في نظام الحكم الفاطمي، وهو الجانب الذي لم يكن يظهر إلا للخاصة. . بل خاصة

الخاصة الذين أصبحوا محلا للثقة، هنا بين الجدران المغلقة كان علماء المذهب الإسماعيلي يكشفون عن مكنون صدورهم ويوحدون بحقيقة الدعوة السرية التي خفيت عن عامة المصريين، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد عبد الله عتّان وهو بصدد المقارنة بين الدعاية المذهبية في شكلها الظاهر بالأزهر، والدعاية الخفية داخل القصور ودار الحكمة: إن الدعاية الظاهرة كانت ستارا وتمهيدا لدعاية أخرى كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ويشرف على تنظيمها وتلقينها زعيم ديني كبير يشغل منصبا مهما في ديوانه الخاص ويُنتع (بداعي الدعاة) وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التي أنشأتها الدولة الفاطمية، كما كان داعي الدعاة من أغرب الشخصيات الرسمية التي خلقتها، وكان داعي الدعاة يلي قاضي القضاة في الرتبة، ويتزيا بزيه، ويتمتع بمثل امتيازاته، ويتنخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين في العلوم الدينية، وفي أسرار الدعوة الفاطمية. ويعاونه في نشر الدعوة اثنا عشر نقيبا وعدة كبيرة من النواب يمثلونه في سائر النواحي، وكانت هذه الدروس الخاصة تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقة في إيوان القصر الكبير، وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر، وهو المسمى بـ «المحول» وكان من أعظم الأبنية، أرحبها، فإذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي، فيمسح على رؤوسهم بعلامه الخليفة، ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب، ويؤدى له «النجوى» من استطاع (وهو رسم اختياري قدره ثلاثة دراهم وثلث يجبي من المؤمنين للاتفاق على الدعوة والدعاة). وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذاهب، ورجال الدولة والقصر، ونساء

الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ، وتعرض فيها الدعوة الفاطمية السرية على يد دعاة تفقهوا في درسيها وعرضها : وكان تلقين هذه الدعوة هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان في الواقع أهم غاية يراد تحقيقها . وكان للكافة أيضا نصيب من تلك المجالس ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ، ويعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقي الدعوة : وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعا إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقا لمستوى الطبقات والأذهان ، فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا .

وقد عرضنا من قبل ، في حديثنا عن الإمامة ، إلى ما ينسب إلى الأئمة من ادعاء الغيب والمقدرة على إتيان الخوارق ، ورأينا كيف يؤيد بعض الدعاة الإسماعيلية هذه المزاعم في كتبهم . بل وكيف يرفعون بعض الأئمة إلى مرتبة النبوة ، وينسبون إليهم بالفعل إتيان الخوارق والمعجزات ، وكيف ينفي بعض الدعاة من جهة أخرى نسبة هذه المزاعم إلى الأئمة . ثم رأينا بعد ذلك كيف كان الخلفاء الفاطميون يتجهون إلى التعلق بمدارك الغيب ، ويغلب عليهم شغف الخفاء .

على أن هذه المسألة ليست إلا ناحية واحدة من مسائل أخرى متعددة النواحي ، وهي تتعلق بالدعوة الإسماعيلية ذاتها ، وما يحيطها الدعاة به من ضروب الخفاء والغموض ، والتوصل إلى ذلك من القول بالتأويل والدعوة الظاهرة والباطنة ، والمعنى الظاهر والمعنى الباطن

ومنطوق الرموز والأرقام، وأمثال ذلك، مما يراد به أن تلقى على الدعوة الإسماعيلية، أو الدعوة الفاطمية، هالة من الخفاء والروح، تجعلها فوق إدراك الكافة.

وينقل عنان ما ورد في «المجالس المستصرية» من إشارات عديدة إلى مسألة الظاهر والباطن، ترينا إلى أى حد كان الدعاة يعتمدون على هذه المسألة في إثارة الخفاء والروح في نفوس «المؤمنين» فمن ذلك قول الداعي في المجلس الأول: «وأرجعوا في المشكلات إلى من جعله الله بهدايتكم خير كفيل، فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتماعا، انتقدحت الفوائد، وعرفت المقاصد، وأدركت النفس بتوسط الخواص، ما في العالم من البدائع، فاستدلت بوجود الصنعة على معرفة الصانع»؛ وقوله في المجلس الثاني معلقا على الآية: «وذروا ظاهر الإثم وباطنه»، «فمن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن، أو بباطن دون ظاهر، فهو كمن يعبد على حرف، لأن كل كلمة تفيد معانيها، ولا تنتهي إلى الغاية فيها خصصناكم بإعادة القول في بيان تأويلها».

ويلجأ الدعاة فضلا عن ذلك إلى رموز الأرقام، ويذهبون في ذلك مذاهب خيالية: فمن ذلك تفسير الداعي «البسملة» وكلماتها وحروفها، وكون كلماتها الأربع، تشتمل على تسعة عشر حرفا، منها «بسم الله» سبعة أحرف، إشارة إلى الأئمة السبعة الذين في كل عصر منهم إمام يؤدي إلى أهل عصره ما أقامه الله تعالى لتأديته، و«الرحمن الرحيم»، وحروفها اثنا عشر، مثل على الحجج الاثني عشر الذين بثهم الإمام في جزائر الأرض، الاثني عشرة للإبلاغ عنه، ومن التسعة عشر

حرفا التي تتكون منها البسملة، عشرة أحرف خمسة تتكرر، وخمسة لا تتكرر؛ فالخمس التي لا تتكرر هي مثل الحدود العلوية لأنها باقية في كل شريعة لا تتغير ولا تتكرر، والخمس الأحرف التي تتكرر، فهي مثل الحدود السفلية التي تتردد في كل دور.

والرموز الرقمية المفضلة لديهم هي السبعة، والاثنى عشر: فعبارة «لا إله إلا الله» بها سبعة فصول واثنى عشر حرفا، والصلاة سبع مراتب تتفاضل فيها صلاة المصلين، والإمامة في الصلاة تجب لسبعة متفاضلي الرتب، ودعائم الإسلام سبع فرائض، واثنى عشر سنة.

ويعترف الأستاذ إيقانوف بأن النظرية الإسماعيلية الباطنية كانت تنطوي على إيمان راسخ بحقيقة هذه التعليقات في عالم المراثيات، وأن هذه الفكرة كانت بالنسبة لها فرضا لا يقبل الجدل. ثم ينوه بما كان لهذه الأفكار الخرافية من قوة هائلة تطوى أمامها الحقائق التاريخية وتثنى بلا رحمة لتوافق منطقها.

قاهرة الدنيا

فى مطلع الأمر . . لم يفطن المصريون إلى حقيقة الغزو الفاطمى ومراميہ البعيدة . . ولم يدركوا عمق الفجوة التى تفصلهم عن الفاطميين مذهبيا ودينيا إلا بعد أن أصبح للفاطميين فى مصر دولة قوية وطيدة الأركان، ونظام حكم ثابت الجذور تحرسه جيوش مسلحة وشرطة مدربة وجواسيس ذوو خبرة فى التخفى والتأثير على الجماهير، وقد نجح الفاطميون فى عهدهم الأول فى إخفاء مذهبهم وخاطبوا المصريين باللهجة التى يحبونها، وظهروا لهم فى مظهر المخلص الذى يكفيهم فساد الحكم الإخشيدى ويرفع عنهم مظالم كافور وأولاده . . ولم يفصح الفاطميون عن نواياهم المذهبية، ولم يكشفوا عن الهدف البعيد الذى حملهم على غزو مصر والتقدم نحو الشرق لاقتحام بغداد عاصمة العالم السنى وقاعدة ملك العباسيين، وإقامة الإمبراطورية الشيعية الكبرى على أساس المذهب الإسماعيلى الباطنى .

وكانت الخطة المرسومة فى القيروان أن تكون مصر ركيزة الإمبراطورية الفاطمية فى مرحلتها الثانية، بعد أن شهدت المغرب مرحلة النشوء، وأن تكون مصر نقطة الارتكاز والثوب نحو شرق

العالم الإسلامى ، وكان هذا يقتضى أن تكون لهم فى مصر مدينة عسكرية ملكية مستقلة عن المدن والخواضر الإسلامية التى قامت فى مصر منذ دخلها الإسلام ، وأن تكون المدينة الجديدة معقلا للخلفاء الفاطميين وثكنات للجيش الفاتح وموطنا لقصورهم ومساجدهم ونواديهم وحفلاتهم . . . وباختصار . . . تكون مسرحا لتلك الحياة الجديدة التى ستقوم فى مصر بكل مميزاتها الاجتماعية والدينية والمذهبية ، ولذلك كانت المهمة الأولى لجوهر الصقلى - بعد أن بلغ الفسطاط - هى أن يضع أساسات المدينة الجديدة فى نفس الليلة ، وقبل أن يجف عرق الجنود بعد رحلة الغزو المضنية كان عليهم أن يحفروا أساسات المدينة الجديدة التى شاء القدر أن تحمل اسم (القاهرة) لتكون القاهرة المعز . . . أو القاهرة المعزية . . . أو القاهرة الدنيا . . . فافهمها كما شئت . . . ولكنها كانت فاتحة عهد جديد فى تاريخ الإسلام . . . ومطلع النور والعلم والحضارة فى عالم الإسلام .

لماذا مدينة جديدة بينما كان جوهر يستطيع أن يقيم بجيوشه فى الإسكندرية أضخم وأعرق مدينة مصرية؟! وأول ما صادفه فى معالم مصر بعد أن اجتاز الحدود الليبية وحط فيها الرحال يوم الاثنين ١٨ من رجب من عام ٣٥٨هـ . وكان يستطيع أن يسكن الجزيرة بعد أن وصلها يوم ١١ شعبان ، فهى فى موقع الوسط بين الدلتا والصعيد ، وعنده النيل شريان الاتصال من الشمال إلى الجنوب ، وكان يستطيع أن يقيم فى الفسطاط بعد أن بلغها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان ، وهى أول حاضرة إسلامية أقامها عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر وقامت من حولها ضواح وتوسعات عمرانية امتدت نحو الشمال وكانت على أتم

استعداد لاستضافة الفاتحين الجدد، ولكن جوهر تجاهل كل هذه المواقع .

ولم يكد يصل إلى القسطنطينية عند غروب الشمس حتى اجتازها بجيشه نحو الشمال واختار القضاء الواقع فيما بين سفح الدراسة وشط الخليج (شارع بورسعيد حاليا) ليكون محلا للمدينة الجديدة . ولم يترك جوهر لجنوده فرصة الراحة وإنما أمرهم بحفر أساسات المدينة، وأساسات القصر الكبير الذي سيكون مقرا للسيدة المعز لدين الله الفاطمي بعد أن يكتمل بناؤه . . . وجعل موقع القصر في نفس القضاء الذي نزل فيه جيشه، وكان هذا ميلاد «القاهرة» تنفيذا لأوامر المعز لدين الله حيث قال له وهو يستعد للتوجه إلى مصر: «لتدخلن مصر بالأردية من غير حرب . . . ولتنزلن في خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا . . .»

ماذا تفهم من العبارة السابقة التي وردت على لسان المعز لدين الله وهو يصدر لجيشه إشارة التحرك نحو مصر؟! ماذا تفهم منها إلا أن مصير العاصمة الجديدة واسمها كان قد تقرر في بلاط القيروان قبل أن يتحرك الجيش الفاطمي لأداء مهمته التاريخية في مصر . . . ولا عبرة في ذلك للقصة التي تتردد على ألسنة المؤرخين بشأن تسمية العاصمة الجديدة . وهي قصة مشهورة ولكنك ما أن تمن النظر فيها حتى يتبين لك وجه التأليف و(الفبركة) فيها .

وتقول القصة كما رواها عمدة المؤرخين المقرئزي أنه لما اعتزم جوهر وضع خطط القاهرة جمع المنجمين وطلب إليهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، وطالعا لرمي حجارتها، فجعلوا بخط السور

قوائم من خشب و بين كل قائمة وأخرى حبلا به أجرامس ، وأفهم
البناءون أن يرموا ما بأيديهم من اللبن والحجارة ساعة تحريك
الأجرامس ، ووقف المنجمون فى انتظار الساعة المرتقبة وأخذ الطالع ،
فاتفق أن وقف غراب على حبل من تلك الحبال فتحركت الأجرامس ،
وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين هم الذين حركوها ، فألقوا ما
بأيديهم من اللبن والحجارة فى الأساس ، فصاح المنجمون : لا . .
لا . . القاهر فى الطالع !! وفاتهم بذلك ما قصدوه . . وكان غرض
جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد من نسل الفاطميين
أبدا . . فحدث أن المريخ كان فى الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين
«القاهر» . فحكموا بذلك أن القاهرة لا بد أن تخرج عن سلطان
الفاطميين ، وأن يحكمها الأتراك ، فلما قدم المعز إلى مصر أخبروه
بتلك القصة ، وكان له خبرة بالتنجيم ، فوافقهم على هذا الافتراض
وأن الترك سوف تكون لهم الغلبة على هذا البلد .

هواية التنجيم:

ولا يخفى عليك ما فى هذه الرواية من خيالات استغلت عشق
الفاطميين للخفاء والغموض والأساطير . . وكان التنجيم سمة من
سمات العصر كله . . وكان المنجمون جزءا من بلاط الملوك والخلفاء
واليهم يعود الملوك قبل الإقدام على عمل خطير مثل إعلان حرب أو
بناء مدينة أو قبول هدنة . . ولكن المهم ألا تصرفنا هذه الأساطير عن
رؤية الهدف الحقيقى من بناء القاهرة ، وهى أن تكون عشا للدولة
الجديدة التى اعتزمت البقاء فى مصر إلى الأبد ، وأن تكون ثكنة

مسلحة لصدد غارات الأعداء سواء كانوا من الداخل . . أو قادمين من الخارج . . لذلك أحاط جوهر مدينته الجديدة بسور من أربعة أضلاع وجعل فى كل ضلع بايين . أما البابين الواقعان فى الضلع الشمالى فهما باب النصر وباب الفتوح . . والبابان الجنوبيان هما بابا زويلة . . ويمكنك أن تذهب لترى هذه الأبواب فهى لا تزال فى موقعها . . ولكن لتعلم أن الأبواب الحالية . وهى من الأحجار . تشهد بفخامة البناء وروعة المعمار ليست هى الأبواب التى أقامها جوهر . . ولكنها من صنع بدر الجمالى الذى أتى إلى مصر فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر فهدم الأبواب التى أقامها جوهر من الدقشوم وأقام تلك الأبواب الحجرية الحصينة التى تراها الآن . . وجعل جوهر فى الضلع الشرقى عند سفح الدراسة باب المحروق وباب البرقية، وجعل فى الضلع الغربى المطل على الخليج باب الفرج وباب سعادة . . وسعادة هذا لا يزال اسمه قائما على الشارع الواقع خلف محكمة مصر وسجن الاستئناف ويعرف بدرب سعادة . . وإذا أردت أن تعرف من يكون (سعادة) فاعلم أنه غلام المعز لدين الله وأحد المقرين إليه . وعندما أوفده إلى مصر . قبل قدوم المعز . خرج جوهر لاستقباله عند الجيزة ثم دخل القاهرة من هذا الباب . . ومن يومها أطلق جوهر اسمه على الباب . . والذى اندثر ولم يبق منه سوى اسم سعادة على الدرب .

وفى داخل هذا السور الذى حددت لك معالمه بدأ بناء الخطط والأحياء فى العاصمة الجديدة التى تناثرت حول القصر الكبير . وخصص خطة لكل قبيلة من القبائل العسكرية التى شاركت فى جيش

الفتح مثل صنهاجة وكتامة وزناته . . وزويلة ومصمودة والجودرية
والعطوفية (أتباع عطوف) والمنصورية وغيرهم . .

بين القصرين:

أما القصر الكبير الذى أصبح مقرا للمعز لدين الله فقد أقيم على
مساحة سبعين فدانا وأمامه من الناحية الغربية أنشأ الخليفة العزيز -
ابن المعز - القصر الغربى أو القصر الصغير ، وفى الأرض التى تفصل
بين القصرين أقيم ميدان شاسع ، هو ميدان (بين القصرين) الشهير ،
ولا يزال اسم بين القصرين موجودا على هذه البقعة التاريخية التى
جعل منها نجيب محفوظ مسرحا للمحتمة الأدبية العظيمة ، وفى هذا
الميدان كانت تتجمع الجيوش المسافرة أو حرس الخليفة ، أو طوائف
الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة ، ولم يمض نصف قرن حتى
كانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت من الرونق والبهاء والضخامة
مبلغا عظيما . وعندما زار الرحالة الفارسى ناصرى خسرو القاهرة
عام ٤٣٨ هـ هاله منظر القصر الفاطمى الكبير ووصفه بأنه «قصر
شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرا لضخامة مبانيه وارتفاعها ،
ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع
ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثنى عشر ألف نفس ، ومن ذا
الذى يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات . وهم يؤكدون أنه
يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة ، وله
عشرة أبواب تفضى إلى الحرم» .

منازل القاهرة،

ويبدو أن القاهرة سارت في طريق النمو الرأسى بدرجة كبيرة حتى يقول ناصرى خسرو إن المباني والمنازل مرتفعة جدا حتى أنها تبدو أعلى من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة، ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات . . ويقول إن منازل القاهرة بنيت بمتهى الترف والعناية حتى ليكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الحجر (الطوب) أو الأحجار العادية . . والمنازل كلها منعزلة بحيث إن الأشجار القائمة فى أحدها لا تصل أغصانها إلى المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنها دون أن يضار أحد، وكانت القاهرة تضم - عندما زارها ناصرى خسرو - ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة، ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنائير معزية فى الشهر، كذلك يوجد عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة، وهذه كلها أيضا من أملاك الخليفة . . إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلا أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه . . وتفهم من هذا النص أن خلفاء الفاطميين كانوا يمارسون التجارة ويحتكرون حركة الإسكان، ومن هذا وذاك كان مصدر بذخهم وترفهم .

مواكب الخلافة،

هذه هى القاهرة كما بناها خلفاء الفاطمية، وكما رآها رحالة عابر فخلبت ليه، وكما يقول محمد عبدالله عنان فى كتابه (تاريخ الخطط المصرية) إن القاهرة فى ظل الخلافة الفاطمية شهدت ألوانا

من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها فى ظل دولة إسلامية أخرى، ومع إنها نمت بعد ذلك نموا عظيما، واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت فى القرن التاسع الهجرى أضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين، فإنها لم تسطع بمثل ما سطعت فى عهدها الأول، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة، ورسومها وأعيادها الباذخة، ولياليها وحفلاتها الباهرة.

كانت القصور الفاطمية آية فى الفخامة والبهاء وأن الخيال ليضطرم إلى الذورة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التى تقدمها إلينا الروايات المعاصرة عن عظمة الخلافة الفاطمية وروعها فى مظاهرها العامة، وعن حياة الخلفاء الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة، فقد كان القصر «الزاهر» وهو القصر الفاطمى الكبير يشرف من الغرب على ميدان بين القصرين، وهو الذى يتسع لعشرات الألوف من الجند والنظارة، وهو ميدان شهير فى تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان القديس مرقس (سان ماركو) فى تاريخ البندقية، وقد لبث ميدان بين القصرين أيام الدولة الفاطمية مسرحا لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية، والحفلات العامة، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية، أعظم ميادين القاهرة، وأزخرها عمارة، وأشدّها احتشادا وأنك لتستطيع أن تتبع كثيرا من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهرى فى ميدان بين القصرين . . . ولبثت القاهرة كالعروس بين مدن الإسلام جميعا تبهر العالم الإسلامى بعظمتها وغناها، وكان المجتمع القاهرى بما انتهى إليه من بذخ وترف ونعماء يجذب إليه أكابر الإسلام من كل صوب، فيشير

فيهم الإعجاب والإجلال، حتى انبهر بها العلامة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عند مقدمه إليها في سنة ٧٨٤ فوصفها بقوله: رأيت حاضرة الإسلام، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأناقة... وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيه العلل والنهل سيحة، ويعجى إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعيم..

جوانب خفية:

غير أن هذه الصورة البراقة المفرقة في البهاء والترف، لم تصرف نظر الباحثين عن سبر الأغوار الخفية للفاطميين وأهدافهم الدينية والمذهبية في مصر، بل يمكنك أن تقول إن هذا البذخ إنما كان ستارا لتغطية المبادئ والأفكار التي قامت عليها الدولة الفاطمية وأرادت أن تصوغ حياة المصريين وفقا لهذه الأيديولوجية وأن تجعل من النعيم والترف وسيلة لإغراء أهل مصر على اعتناق المذهب الإسماعيلي. وهذه الشكوك في مسلك الدولة الفاطمية هي التي جعلت منها لغزا محيرا في صفحات التاريخ المصري، فليس من شك في أن العصر الفاطمي من أسطع عصور مصر الإسلامية إن لم يكن أسطعها جميعا. في رأى عبدالله عنان- غير أن هذا العصر الذهبي يبعث إلى كثير من التأمل، فبينما نراه وضاء واضحا في بعض النواحي، إذ نراه في

بعضها الآخر مظلما مغرقا، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة، يكتنفها كثير من الغموض والخفاء والريب، وإذا تبدى لنا في هذا الصرح الساطع البراق ثغرات قائمة لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقرارتها، ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص، كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها، وكانت مرحلة حكم الحاكم بأمر الله من أشد مراحل التاريخ الفاطمي خفاء وغموضا لما شهدته هذه المرحلة من أسرار غريبة وحوادث غامضة ألقت الكثير من الضوء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية.

نعم كانت الدولة الفاطمية في مصر من أزهى العصور، ولكنها كانت من أشد الدول حرصا على أن تطبع الشعب والمجتمع بطابعها الخاص، وأن تصوغ روح الشعب وعقليته وتفكيره وحياته العامة والخاصة وفقا لمناهجها الدينية والعقلية فترى الحياة الاجتماعية المصرية في العصر الفاطمي تتخذ صورا ومظاهر خاصة، وتتقلب بين ألوان من البذخ والترف والبهاء قل أن نجدها في عصر آخر من عصور مصر الإسلامية، ونراها أحيانا تمتاز بألوان من التطرف والإغراق في الغموض، وكان الشعب المصري على تحفظه في مشايعة الدولة الجديدة في مناهجها وغاياتها المنهجية.

الهيئة الدينية:

لقد كان العصر الفاطمي في مصر أشبه بليالي ألف ليلة وليلة في الأدب العربي، وشهد المصريون من الحفلات والليالي والأعياد

والمآدب ما خلب لبهم وخفف عنهم عناء الحياة، ولكن الخلافة
الفاطمية كانت ترمى من وراء ذلك إلى غايتين :

• الأولى : أن تبث هيتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع
على بعض المظاهر والتقاليد المذهبية .

• الثانية : أن تغمر الشعب المصرى بفيض من الحفلات والمآدب
والمواكب الباهرة، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر، وأن تشر عليه ما
استطاعت من دواعى البهجة والمرح، وذلك لكى تكسب ولاءه
وعرفانه وتأيده . . ولكن كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائما بأنها لم
تكسب كل ولاءه، وأن سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئا من
الوحشة والريب، وكان الشعب ينظر إلى هؤلاء القادمين من الغرب
نظرة الشك خاصة وأنهم يزعمون أنهم يتسبون إلى أهل البيت
دون أن يكون لديهم ما يؤكد صحة هذا النسب . . كما كانوا يدعون
القدرة على ادعاء الغيب ومعرفة مكنونات الصدور، ولكن المصريين
كانوا يسخرون من هذه المزاعم بطريقتهم التقليدية فى التنكيت .

ويروى فى ذلك أن الخليفة العزيز صعد المنبر يوما ليخطب
الجمعة، فوجد رقعة مكتوبا فيها هذان البيتان من الشعر :

بالظلم والجور قد رضينا	وليس بالكفر والحماسة
إن كنت أعطيت علم غيب	فقل لنا كاتب البطاسة

يا أهلا بالقواطم

من الأخبار التي بلغت مبلغ الحقيقة التاريخية : أن المصريين رحبوا بالجيش الفاطمي ، وخرجوا إلى مشارف الإسكندرية لتهتة جوهر الصقلي بسلامة الوصول ، فواصل مسيرته إلى عمق البلاد دون أن يلقي مقاومة تذكر ، وأيا كان وجه الحقيقة في ذلك فإنها حلقة غامضة من تاريخ المصريين ينبغي أن نجلى جوانبها ونعرف لماذا تخلى المصريون عن موقفهم المناوئ للتيار الشيعي منذ أحداث الفتنة الكبرى التي وقعت بعد اغتيال الخليفة عثمان بن عفان . فكيف حدث هذا التحول الجذري؟ ولكي نكشف وجه الحق في ذلك لابد أن ننظر في الظروف الداخلية التي كانت عليها مصر عشية الاحتلال الفاطمي . فبعد وفاة «كافور» تعرضت البلاد لمحنة اقتصادية ، واشتدت عليها الضائقة . والشعوب إذا بلغت حد اليأس وتكالب عليها المفسدون : نفضت يدها من الحاكم المحلي ، ومدت يدها إلى المنقذ حتى لو كان أجنبيا ، وتتزايد هذه الرغبة إذا كان الحاكم المحلي من أصول أجنبية فيستوى لديها الحاكمان من حيث الشعور القومي .

وكانت مصر في أواسط القرن الرابع الهجري تخضع لحكم ضابط تركي من بلاد ما وراء النهر اسمه محمد بن طغج (الإخشيد) استطاع

من خلال المنافسات العسكرية مع أقرانه أن يفوز بمصر ، ويستصدر قرار تعيينه واليا على مصر من الخليفة العباسي القاهر سنة ٣٢٣ مع لقب فخيم هو (الإخشيد) أى ملك الملوك ، وكان الإخشيد - كما يذكر المؤرخون - طموحا وافر الذكاء والشجاعة والعزم استطاع أن يمد نفوذ مصر إلى الشام وأرض الحرمين ، وجعل من مصر دولة شبه مستقلة فى ظل الخلافة على غرار سلفه أحمد بن طولون ، وفى عهد الإخشيد استقرت الأحوال بمصر ، وانتظمت قواتها الدفاعية ، لكن مالبثت مصر أن دخلت مرحلة الأفول بعد موت الإخشيد سنة ٣٣٤هـ ، وجاء من بعده خلف ضعاف تحت وصاية العبد الخصى (كافور) الذى كان خادما للإخشيد ، ومع أنه كان كثير الدماء والعزم إلا أن عناصر الفناء أخذت تتسرب فى أركان الحكم وظهرت أمارات الذبول على الدولة ، واشتدت الأزمات الاقتصادية وعم الغلاء والوباء ، ويقال إن مصر فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ٦٠٠ ألف نفس ، وساد الضجر والقلق والسخط وانحطت الأخلاق ، وانتشر الفساد والانحلال بين أفراد الطبقة الحاكمة حتى ليروى المقرئى فى (الخطط) تلك القصة التى يستدل بها على شيوع الفساد ، وخلاصتها أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز لدين الله) بعثت من تونس إلى مصر بفتاة لكى تباع فى سوق الرقيق ، فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة على حمار وساومتها فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الإخشيد حاكم مصر ، وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان ، فلما عاد إلى تونس حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل المغاربة وروى الوكيل لهم حادث

الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم فانهضوا بنا إليهم . .

قريص:

كان الفاطميون إذن يتربصون بمصر ، ويتسقطون أخبارها ، ويتلمظون سعيها لاحتلالها . . كانت الدولة الفاطمية في المغرب في مرحلة الفتوة والشباب ، وكانت مثل كل دولة بدائية لا تعرف الرخاوة والترف والليونة ، ولم يكن الفساد قد تسرب إلى مؤسسيها الأوائل : بينما كانت مصر تعاني أشد حالات العسر الاقتصادي والفساد الأخلاقي والانهيار السياسي ، وبدأت نوايا الفاطميين في احتلال مصر منذ نشأة دولتهم في (رقادة) فقاموا بغزو مصر أكثر من مرة ، ولكن كانت هذه المحاولات تبوء بالفشل لأن مصر أثناء تلك المحاولات كانت تحت سيطرة رجال أشداء وزعماء أقوياء ، أفسدوا خطط الفاطميين ، وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها وهى فى مركزها الثانى فى الشمال الأفريقى ، تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية . والمذهبية الكبرى ، وهو إقامة دولة شيعية كبرى تنافس دولة الخلافة العباسية فى بغداد ، وتترع منها زعامة الإسلام ، وكانت مصر فى نظر الفاطميين هى ميدان المعركة الحاسمة مع العباسيين ، وقاعدة الانطلاق إلى الشام وفلسطين واليمن وأرض الحرمين لتحقيق الحلم الأكبر وهو إقامة دولة الشيعة الإسماعيلية على أسس قوية باذخة .

ولم يكن زحف جوهر الصقلي - مبعوث المعز لدين الله - هو أول زحف على مصر، فقد تكرر الزحف وتكرر الفشل، وكانت آخر هذه المحاولات سنة ٣٣٢ في عهد الإخشيد. وكف الفاطميون عن فكرة الزحف مؤقتا حتى تنهيا لهم ظروف النجاح الكامل، وتحقق لهم ما أرادوا بعد وفاة الإخشيد، وتدهورت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في مصر، واعتمد الفاطميون اعتمادا كبيرا على ضعف الجبهة الداخلية المصرية. . . وانهيار. . . الروح. . . المعنوية وانتشار روح اليأس والملل والإحباط واشتداد الصراع على السلطة بين قادة الجند لدرجة أن بعض هؤلاء القادة كاتبوا المعز وبعثوا إليه يشجعونه على غزو مصر ويزينون له الأمر. وكان أكبر هؤلاء المتمردين رجلا كان يهوديا قبل أن يسلم اسمه (يعقوب بن كلس) وهو من أصل عراقي، وقد على مصر زمان الإخشيد وارتقى في المناصب إلى درجة مرموقة، ولكنه فقد نفوذه في عهد كافور، وانتهى مصيره إلى السجن ومصادرة أمواله، ثم نجح في الإفلات من السجن وفر إلى بلاد المعز وزين له احتلال مصر، وسوف يكون لهذا الوزير شأن كبير في الدولة المصرية حتى يشغل أعظم منصب تنفيذي بعد منصب الخلافة، وهو منصب الوزير.

وكانت الدعوة الفاطمية تعتمد اعتمادا كبيرا على الدعاية. . . ولذلك بعثت إلى مصر - قبل احتلالها - بعدد من عيونها ودعاتها وجواسيسها، كانت مهمتهم أن يضعفوا الروح المعنوية عند المصريين، ويشروهم بالخلاص مما هم فيه من ضنك على أيدي الفاطميين، يأخذوا عليهم سكوتهم على حكم العبد الرقيق (كافور) ويعتبروا

ذلك مخالفا لطبائع الأمور، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية: لقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصى هو كافور، وقد كان لهذا الحدث الفذ في تاريخ مصر الإسلامية، بلا ريب، وقع عميق في جرح الشعور القومي، وكانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوتها وغناها، وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية تستظل بلواء الإمامة الإسلامية كالدولة الفاطمية، على الاستمرار في معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية، وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر، جواً مهدداً يشير بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه.

المتهاونون:

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية إلى الأراضي المصرية اشتد الاضطراب في مصر، وكثر الخلاف في الرأي، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بني الإخشيد وكافور أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف، وأخذوا يتأهبون للمقاتلة، ولكن معظم الزعماء المصريين أثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم، وقرّر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح، واتفقوا مع الوزير جعفر ابن الفرات على أن يتولى تلك المهمة، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني أن يكون سفيرهم لدى الفاتح، فأجابهم إلى ذلك، وسار على رأس جماعة من وجهاء مصر إلى لقاء جوهر، فلقاه على مقربة من الإسكندرية، في قرية تعرف بأتروجه (أواخر رجب سنة ٣٥٨)

فاغتنب جوهر بمقدمهم ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، وكتب لهم أمانا يعتبر وثيقة هامة في الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ، وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر ويقول لأهلها : «إن أمير المؤمنين لم يكن إخراج العساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدي ، واستطال عليكم المستذل ، وألمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة ، وبإدراك ينفذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم الخزي وشملتهم الذلة ، واكتفتهم المصائب وتتابع الرزايا» .

ثم يشير جوهر إلى ما أوعز به أمير المؤمنين «من نشر العدل» وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام في الحق ، وإغاثة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر ، وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقار الأحوال ، وحيطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم» وما أمر به مولاه «من إسقاط الرسوم الجائرة ، وأن أجيزكم في الموارث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية ، وأن أتقدم في رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم» .

الأمان:

ويشير جوهر بعد ذلك إلى المسألة الدينية، فيقول «إن الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما يكتسب عليه من أداء المفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار التي جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد، على ما أمر الله في كتابه، ونصه نبيه ﷺ في سنته، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه، ولكم على أمان الله التام العام الدائم، المتصل الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام، وكرور الأعوام، في أنفسكم وأموالكم، وأهليكم ونعمكم، وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم. . . وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون. . إلخ» ويختتم جوهر أمانه بدعوة المصريين إلى لقائه والسلام عليه، والتزام الطاعة لأمر المؤمنين.

وفي هذا الأمان الذي أصدره جوهر لأهل مصر، فضلا عن التنويه بما جرى إلى شئون الحكم من فساد، وما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب، وما يزعمه أمير المؤمنين من إقامة العدل، وتأيد الشريعة وإصلاح المرافق والشئون، إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحتوا الشام يومئذ، وأخذوا يهددون مصر، وقد كان الخطر حقيقيا لا ريب فيه، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة في يد أولئك الغزاة السفاكين،

بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين ، حتى اضطروا إلى لقاء القرامطة فى أرض مصر ذاتها ، ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد .

على أن جوهر اضطرب مع ذلك إلى خوض بعض المعارك قبل أن يتم فتح مصر ، ذلك أن قلول الإخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان ، وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب ، فاختاروا لهم أميرا ، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة ، ولما وصل الجيش الفاطمى إلى الجيزة ألقى القوى الخصيمة تنهيا لرده عن عبور النيل ، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضا ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم الإخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير ، ولاذوا بالفرار ، وتم الفتح الفاطمى لمصر (متصف شعبان سنة ٣٥٨) .

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين مرة أخرى ، فجدد لهم الأمان ، وذهب الوزير ابن الفرات ، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء ، وسار جوهر فى ركبته المظفر إلى عاصمة مصر ، فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليو سنة ٩٦٩ م) «وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحتة فرس أصفر» وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل فى بسيط شاسع يقع فى ظاهرها من الشمال الغربى ، وفى مساء نفس اليوم الذى تم فيه ذلك الفتح العظيم ، وضع جوهر تنفيذا لأوامر سيده المعز ، فى نفس المكان الذى نزل فيه ، خطط المدينة الجديدة ، التى قرر الفاطميون إنشاءها لتكون لهم فى مصر قاعدة ومعقلا ، وحفر أساس القصر الفاطمى فى وسطها ، واختطت

القبائل الشيعية حول القصر كل قبيلة خطة عرفت بها كزويلة وكتامة
وبرقة وغيرها.

ولعل فيما قرأت ما يكفي لكى يوضح لك سر ترحيب المصريين
بالفاطمين رغم اختلاف المذهب والعقيلة والمزاج والتكوين النفسى
والثقافى.

الحاكم بأمر الشيطان

فى عام ١٠٠٠ ميلادية - مطلع الألفية الثانية - الموافق ٣٩٠ هجرية كانت مصر تحت حكم الخليفة الفاطمى الشهير الحاكم بأمر الله ، وكان عمره إذ ذاك لا يتعدى الخامسة عشرة ، وهى سن لا تؤهل صاحبها لتحمل مسئولية الحكم والإمامة ، إلا أن نظام الوراثة فى العقيدة الإسماعيلية كان يحصر الإمامة فى الأعقاب ولو كانوا أطفالا - وقد أدى ذلك إلى أيلولة الحكم إلى عدد من الغلمان والمراهقين كان أشهرهم وأكثرهم غرابة وشذوذا ، دون منازع ، الحاكم بأمر الله فقد تولى الحكم وعمره أحد عشر عاما إثر وفاة أبيه الخليفة «العزیز» عام ٣٨٦ هجرية الموافق ٩٩٦ ميلادية ، وتولى الوصاية عليه أستاذه ومعلمه «برجوان» لمدة أربع سنوات فقط ، انتهت بانقلاب التلميذ على أستاذه وقتله غيلة كى ينفرد بالحكم دون وصاية أو إرشاد من أحد .

وفى رأى كثير من المؤرخين أن هذا الحادث كان بداية تحول الحاكم بأمر الله إلى طاغية جبار لم يشهد التاريخ له نظيرا فى غرابة الأطوار ، والاستهانة بالدماء ، إلا أن هذا العام - مطلع الألفية الثانية - شهد أيضا حادثا أشد هولا وأقبح أثرا من حادث اغتيال برجوان . . . ذلك هو عزم الحاكم بأمر الله على نقل مناسك الحج إلى مصر ، ونقل رفات

النبي صلى الله عليه وسلم - وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما
من المدينة المنورة إلى القاهرة لتكون هى العاصمة الروحية للمسلمين
بدلاً من البلد الحرام .

ولا شك أن هذا التفكير الشاذ الذى بدأ من الحاكم بأمر الله وهو
فى هذه السن الصغيرة ، كان إرهاصاً ومؤشراً على حالة الخلل العقلى
التي أصابته منذ وقت مبكر ، ثم صاحبته طوال حياته ، وانتهت به إلى
تأليه ذاته ، واعتقاده بأن روح الله تجسدت فيه ، وهى العقيدة التي
ابتدعها فلاسفة الفرس الإسماعيليون ، وصادفت هوى عند الحاكم
بأمر الله ، وأسفرت عن ظهور الديانة الدرزية التي تعتقد فى ألوهية
الحاكم بأمر الله ورجعته .

أما قصة نقل الحج إلى مصر فنجدها فى كتاب «الدولة الفاطمية فى
مصر» للدكتور أيمن فؤاد سيد ، تبعاً لرواية أوردها الجغرافى الأندلسى
أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية ، وهى السنة التي مات فيها
الخليفة المستنصر - حفيد الحاكم - ودلالاتها أنه كان قريب العهد من
عصر الحاكم بأمر الله ، وربما كان شاهداً على هذا الحادث ، وخلاصته
أن الحاكم بأمر الله شيد فى المنطقة الواقعة بين القسطنطينية والقاهرة ثلاثة
مشاهد لينقل إليها رفات الرسول - ﷺ - ورفات الشيخين أبى بكر
وعمر ، ولم يحدد البكرى تاريخ هذه المحاولة ، ورغم أن المصادر
الفاطمية والدراسات القائمة عليها لا تشير بأى حال إلى هذه
المحاولة ، فإن المؤرخ ابن فهد المكي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م ،
والمؤرخ المصرى «الجزيرى» بعده بنحو قرن من الزمن ، لم يترك أى
شك فى أن هذا المشروع الفاشل قد تم فى سنة ٣٩٠ هـ - ١٠٠٠ م .

* وتفيدنا هذه الرواية ، التي تقترب من رواية البكرى ، بأن أحد الزنادقة قد أشار على الحاكم بأمر الله ، بنيش قبر النبی - ﷺ - وصاحبيه وحملهم إلى مصر ، وبذلك يشد الناس رحالهم من أقطار الأرض إليها ، ويذكر البكرى أن الحاكم بذل أموالاً لرجال من شيعته نجحوا في حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقابل القبر ، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوه وبنواياهم ، فقتلوهم ومثلوا بهم ، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص بحيث لا يطمع في الوصول إليها طامع أبداً ، إلا أن رواية ابن فهد في كتابه «إتحاف الوري بأخبار أم القرى» ورواية الجزيري في كتابه «الدرر الفرائد المنظمة» تفيدنا بأن الحاكم بأمر الله عهد إلى أمير مكة «أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني» بهذه المهمة ، فمضى إلى المدينة وأزال عنها إمرة بني الحسين بحجة قدحهم في نسب الفاطميين ، وجلس في مسجد المدينة ، وحضر إليه جماعة من أهلها بلغهم ما جاء من أجله ، ومعهم قارئ يعرف بالركباني فقرأ آيات من سورة التوبة تدعو إلى مقاتلة أئمة الكفر والناكثين بأيمانهم ، فثار الحاضرون على مندوب الحاكم «أبو الفتوح» وكادوا يفتكون به ، ولم يمنعهم من ذلك إلا خوفهم من العواقب ، خاصة أن أرض الحرمين كانت للفاطميين ، ولم يكذب يمشي بقية النهار : «حتى أرسل الله ريحا كادت الأرض تزلزل منها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيول بسروجها وهلك خلق كثير من الناس» . . وقد فسرت هذه الكارثة الكونية على أنها غضب من الله . . وأفلت أبو الفتوح من حرج المهمة التي جاء من أجلها واعتبرها حجة عند الحاكم تبرر فشله في تنفيذ ما أمره به .

غير أن فشل هذه المحاولة لم يمنع الحاكم بأمر الله من أن يعاود من جديد حرمان المدينة من ذخائر مقدسة أخرى، إذ أن فكرة تحويل قوافل الحج نحو العاصمة الفاطمية - القاهرة - يرفعها إلى مصاف المدن المقدسة، أصبحت جزءاً من سياسة الفاطميين، وعلى الأخص الحاكم، ففي سنة ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م أوفد الحاكم أحد الزنادقة، واسمه «ياروختكين العضدي» إلى المدينة المنورة لينقب في دار الإمام جعفر الصادق - والتي لم يجرؤ أحد على فتحها بعد وفاته في عام ١٤٨ هـ - عن الذخائر التي تحتوى عليها، وقد جمع ياروختكين ما وجده في الدار وعلى الأخص مصحف، وحامل من خشب مطوق بحديد ودقة خيزران وحربة وسرير، فحمل جميع ذلك إلى القاهرة وصحبه جماعة من شيوخ الطوبىين، فلما وصلوا إلى الحاكم نفحهم بقليل من المال، ورد عليهم السرير وأخذ الباقي قائلاً إنه أحق به منهم، ومن بين هذه الذخائر قطعة من حصير كانت تستخدم كمسجادة صلاة للخلفاء في وقت صلاة الفطر، ولم تكن هذه الذخائر الوحيدة التي احتفظ بها الفاطميون، فقد كان عندهم أيضاً «ذو الفقار» سيف على بن أبي طالب، وسيف الحسين بن على، ودرقة حمزة بن عبدالمطلب، وسيف جعفر الصادق.

طاغية رهيب:

لقد تضاربت أقوال المؤرخين حول شخصية الحاكم بأمر الله، فهو في رأى البعض مثال للتراثة والعدالة والتعفف عن صفائر الأمور، والجدية في الإدارة والحزم في محاسبة اتباعه من الوزراء والكبراء،

وفى رأى آخرين يبدو الحاكم بأمر الله فى صورة الطاغية المحب لسفك الدماء، المتقلب الأهواء، وربما كانت أوصافه الشخصية تلقى بعض الضوء على تصرفاته، فقد كان منذ حداثة يتمتع بينية قوية متينة، ويبدو بمظهر الجبابة، مبسوط الجسم، مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقاة، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الإنسان صبرا عليها، وله صوت قوى مرعب يحمل الروح إلى سامعه، ويقول عند ساويرس بن المقفع: كان منظره مثل الأسد، وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيئته، وكان صوته جهرا مخوفا، ويقول الإنطاكى: كان إذا أشرف على جماعة سقطوا على الأرض وجلا منه.

أما الأستاذ محمد عبد الله عنان فيصف عصر الحاكم بأمر الله بأنه أغرب عصر فى تاريخ مصر الإسلامية، وربما كان أغرب عصر فى تاريخ الإسلام كله، عصر يمازجه الخفاء والروح، وتطيعه ألوان من الإغراق والتناقض، مدهشة مثيرة معا، ولكن هذه الألوان الخفية المفرقة، وهذه النواحي المتباينة هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته، وهى التى تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات بصعب اختراقها. . والرواية الإسلامية تقدم إلينا الحاكم فى صورة مروعة مثيرة، فتقدمه إلينا أولا فى صورة جبار متقم، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء، ثم تقدمه إلينا فى صورة طاغية مضطرم الأهواء والتزعجات، متناقض الرأى والتصرفات لا تكاد تلمس لأعماله باعثا أو حكمة، شرس جموح، ميال إلى الشر، خثون وافر الغدر، لا يستقر على ثقة أو صداقة، وتقدمه إلينا على العموم فى ثوب شخصية بغیضة خطيرة، فاقلة الاتزان والرشد، يغلب عليهما

الجانب الأسود ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحي الخير
والخلال الحسنة، فتصفه بالجود والتعفف، والزهد في كثير من متاع
الحياة الدنيا.

يقول عنه الوزير جمال الدين في كتاب «أخبار الدول المنقطعة» إنه
كان سيئ الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال . . يؤخذ على
اليسير من الذنب . . حادا . . لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أئما
وأجيالا . . ويقول عنه المكين ابن العميد: كان رديء السيرة، فاسد
العقيدة مضطربا في جميع أموره، يأمر بالشئ ويبالغ فيه، ثم يرجع
عنه ويبالغ في نقضه، ويقول عنه صاحب «مرآة الزمان»، «وكانت
خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام ومحبة للعلم
وانتقام من العلماء وميل إلى الإصلاح وقتل الصالحاء وكان الغالب
عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط» . . ويصفه ابن
خلكان في كتاب «وفيات الأعيان» بأنه كان جوادا، سمحا، خبيثا،
ماكرا، رديء الاعتقاد، سفاكا للدماء، قتل عددا كبيرا من كبراء دولته
صبرا، وكان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل
الرعية عليها، ويقول عنه ابن خلدون: «وكان حاله مضطربا في الجور
والعدل، والإخافة والأمن والنسك والبدعة».

والمعروف أن جميع وزراء الحاكم بأمر الله قتلوا على يديه بأشنع
ومائل القتل، باستثناء واحد هو الوزير النصراني زرعة بن عيسى بن
نسطوروس، الذي شغل الوزارة لمدة ستين ولقب بالشافى، فلما
مات ميتة طبيعية أفلت بها من بطش الحاكم، غضب الحاكم غضبة
كبيرة على هذه النهاية التي لم يكن له فيها يد، ويقول المقرئى: إن

الحاكم تأسف على موته من غير قتل وقال : «ما أسفت على شيء قط ، أسفى على خلاص ابن نسطوروس من سيفى ، وكنت أود لو ضربت عنقه لأنه أفسد دولتى ، وناق على» .

• وللحاكم بأمر الله قصة دموية مروعة مع خادمه «غبين» وكاتبه الجرجرائى ، وكان «غبين» من الخدم السود الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه ومحبة وثقته ، فعينه رئيسا للشرطة والحسبة والنظر فى جميع الأموال والأحوال ، ومنحه لقب «قائد القواد» وسطح نجمه حتى أنه لما مرض ، ركب الحاكم لعيادته ، وبعث إليه خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا ، غير أن هذه المظاهر لم تحل دون نكبته ، فسخط عليه الحاكم وأمر بقطع يده اليسرى ، وبعد قليل سخط عليه مرة أخرى فأمر بقطع يده الأخرى فحملت فى طبق إلى الحاكم وبعث إليه الحاكم بالأطباء للعناية به وأغدق عليه مالا وتحفا كثيرة ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع وحملوه إلى الحاكم أيضا ، ومات «غبين» متأثرا بهذه القطائع الفظيعة ، أما كاتبه الجرجرائى فقد أمر الحاكم بقطع يديه ولكن أبقى على حياته فعاش بقيتها أقطع اليدين .

• فعل الحاكم بأمر الله كل هذه الفظائع وهو لم يزل فى مطلع شبابه ، ولم يجاوز العشرين من عمره ، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مصدر قلق واضطراب ولم يك ثمة ريب - كما يقول الأستاذ عنان - فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ، ولم يكن فورة أهواء فقط ، وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طوال حياته ، ووقعت فى الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها ، وكانت تقترن بضروب مروعة من القسوة ، وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح

من الرهبة والفرع وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى مشار الرعب فى نفوس الناس . .

كبيرة الكبائر

❖ إلا أن كبيرة الكبائر التى ارتكبها الحاكم : هى ادعاؤه الألوهية . . ورعايته للدعوات الإلحادية التى هبت على مصر من جانب دعاة الفرس الإسماعيليين الذين وجدوا فى شخصية الحاكم واضطرابه العقلى ، فرصة سانحة للكشف عن أغراضهم الخبيثة فى هدم الإسلام ، وصارت مصر مهدا خصبا لطائفة من الدعاة السريين ، والدعوات المذهبية والإلحادية المفرقة ، وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها حتى استحالت فى أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهيته» وتمخضت هذه التيارات الخفية عن عاصفة دموية مروعة اختتمت بها ذلك العهد الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة ، ثم كانت ذورة الخفاء ، وكان ختام المأساة ، فغاض الحاكم من هذا العالم فى ظروف كالأساطير ، وأسبغ الخفاء على ذهابه حجابا كثيفة من الغموض كتلك التى أسبغها على حياته وعلى شخصيته كلها .

لقد نكب الشعب المصرى فى الأعوام الخمسة عشر الأولى من عهد الحاكم من الحوادث والمفاجآت السياسية والدينية ، ما لم يسمع به من قبل فى أى مجتمع مسلم ، فرأى القتل الذريع يخدم كل صوت أو رأس يرتفع ، والاضطهاد المنتظم يحطم الطوائف والأقليات ، والقوانين الصارمة تقلب أوضاع الحياة الاجتماعية ، وقد احتمل

الناس كل شيء فى صبر وجلد، ودفعوا من حرياتهم وأموالهم
ودمائهم ثمن الاحتجاج والتذمر، ولم يبق إلا أن يشهد الحوادث
تجربى فى طريقها المحتوم.

كانت الإمامة الفاطمية فى عصر الحاكم تشح برداء القدسية
الرهية، وتستحيل الدعوة المذهبية إلى نوع من الفلسفة الحرة أو بعبارة
أخرى إلى معترك من الإلحاد المفرق وكان الحاكم هو روح هذا التطور
الخطير فى توجيه الدعوة الفاطمية فأنشأ «دار الحكمة» لتكون مركزاً
لتلقين الدعوة الإلحادية فى نظم ومراتب من أغرب وأروع النظم
السرية التى عرفها التاريخ.

الإلحاد من بلاد الفرس،

كيف نشأت الدعوة إلى ألوهية الحاكم بأمر الله؟

فى أوائل عام ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ظهر بمدينة القاهرة رجل يدعى
حمزة بن على الزوزنى دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وشرح دعواه
فى عدة كتب ورسائل غريبة، وكل الروايات المعاصرة لا تقدم لنا
سوى إشارات موجزة عن هذا الملحد الجريء. وقد استقى الأستاذ
عبدالله عنان معظم التفاصيل المتعلقة بالرجل ودعوته من رسائله
الخطية القديمة وتبين منها أنه فارسى من مقاطعة «زوزن»، وكان فى
بدء أمره عاملاً يشتغل بصنع اللباد، وأنه وفد إلى القاهرة عام ٤٠٥ هـ
وانتظم فى سلك الدعاة الذين كانت تغص بهم القاهرة يومئذ وخاض
غمار الجدل الدينى والدعوات السرية التى كانت تضطرم بها،

ويلاحظ الأستاذ عنان أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الإسلام وحاربوه باسمه يتمون إلى أصل فارسي، ومنهم عبدالله بن ميمون القداح مؤسس الأسرة الفاطمية.

وفي رسائل حمزة ما يلقي بعض الضياء على شخصيته وطبيعة دعوته ومهمته، فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأمر الله وعقدوا معه أوثق الصلات وتلقوا وحيه أو استوحوا دعوته واستلوا في بشها برعايته، وكان لهم أكبر الأثر في التوجيه الخفي للدعوة، وكان حمزة نفسه أيضاً في صفة «النبوة» ويصف أعماله بالمعجزات.

وعكف حمزة على بث دعوته سرا ولم يجاهر بها إلا في أواخر سنة ٤٠٧ هـ، وعندئذ يبدو على مسرح الحوادث الظاهرة ويلازم الجلوس جهراً في مسجد «تبر» بالمطرية ويدعو جهراً إلى عبادة الحاكم بأمر الله وينادي بالتناسخ في الأديان والشرائع وبالحلول، ويزعم أن الحاكم ليس بشراً وإنما هو رمز حل فيه الإله فاجتمع إليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الإسماعيلية، وتلقب بهادي المستجيبين، وخلع على الحاكم لقب «قائم الزمان» وأوفد دعائه في أنحاء مصر والشام، ورخص في أحكام الشريعة وأباح نكاح الأمهات والبنات وسائر المحارم، وأسقط جميع التكاليف في الصلاة والصوم وغيرهما، فاستجاب له كثير من العامة، وكثر جمعه وذاع أمره، وكان الحاكم حين يمر ركه بالمسجد، يخرج إليه حمزة ويحادثه طويلاً على انفراد، ولم يلبث أن أولاه الحاكم رعايته بصورة ظاهرة، وبعث إليه وإلى أتباعه بالسلاح ليدافعوا عن أنفسهم وقت الحاجة، إذ كانوا يتوجسون

شرا من الناس ، ثم تمادى حمزة فى مشروعه فاتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل ، ولقب أحدهم وهو إسماعيل بن محمد التميمى بلقب «سفير القدرة» وأنفذه لأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم فى صفته الجديدة التى أسبغها عليه حمزة وشيعته ، أى باعتباره «قائم الزمان» فكان الكثير منهم يضطر إلى التظاهر بالقبول خوفا من البطش والانتقام .

وفى نفس الوقت الذى أعلن فيه حمزة هذه الدعوة الجريئة ، ظهر عدة من رسله وتلاميذه ، وفى مقدمتهم حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ومحمد بن إسماعيل «الدرزى» وكان لهما شأن عظيم فى تلك الحركة ، وكان الدرزى فى المبدأ حليفا لحمزة وداعيته ، ولكنه انقلب إلى منافسته وخصومته ، أما الفرغانى «الأخرم» فقد ظهر بعد حمزة بقليل ، ودعا إلى التناسخ والحلول والوهية الحاكم ، وأرسل بضمون نظريته إلى العلماء والفقهاء والأكابر ، وذاعت دعوته بسرعة فى جماعة من المغامرين والمرتزة ، فاستدعاه الحاكم وخلع عليه وأركبه فرسا مطهما ، وسيره فى موكبه ، وأولاه عطفه ورعايته ، بيد أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل حتى لقي الأخرم مصرعه بينما كان يسير فى ركه بالقاهرة ، فوثب عليه رجل من أهل السنة وأرداه قتيلا ، فتفرق أصحابه ، وانهارت دعوته ونهبت دار الأخرم وطورد أنصاره فى كل مكان ، وغضب الحاكم لذلك أيما غضب وأمر بإعدام القاتل فى الحال ، وكفن الأخرم بأكفان من القصر الفاطمى ودفن فى حفل رسمى وحمل أهل السنة قتيلاهم ودفنوه مكرما ، وهرع الناس أياما لزيارة قبره ، ولكن القبر نبش بعد أيام ، واختفت جثته بتعليمات من الحاكم .

إلا أن مقتل الفرغاني الأخرم لم يضع حدا للدعوة الإلحادية، ولم تفتقر حماسة الدعاة الملاحدة رغم ثورة الشعب المصري وتحفزه للفتك بهم، وكان محمد بن إسماعيل الدرزي وهو من أصل تركي - أقوى رسل حمزة وأشدّهم عزيمة وجسارة فزعم أن روح آدم قد انتقلت إلى روح علي بن أبي طالب، ومنه إلى روح الحاكم صفوة سلالته، وشرح أصول دعوته ومذهبه في رسالة إلى الحاكم فقربه وأغدق عليه، واشتد نفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء، وتظاهر بعض الكافة من الجهلاء والمرترقة وبعض الذميين والمنافقين بقبول هذه الأفكار الملاحدة طمعا في نفع الحاكم أو اتقاء لشره، وكان هؤلاء إذا لقوا الحاكم قالوا له: السلام عليك يا أحد... يا محي... يا محيت... وأمثال ذلك من عبارات الكفر. ولكن عامة الشعب المصري سخطت على هؤلاء الكفرة وطاردهم أينما ذهبوا... وفي يوم ١٢ من شهر صفر عام ٤١١ هـ ركب فريق من أتباع حمزة على الخيول ودخلوا مسجد عمرو وهم يجاهرون بمذهبهم، واحتل ثلاثة من الملاحدة منصة القاضي، وأخذوا يدعون الناس إلى فكرتهم فضج الناس بالتكبير والتهليل ولما حضر القاضي إلى المسجد قدم إليه أحد الملاحدة رقعة من حمزة أولها: باسم الحاكم لله الرحمن الرحيم ويأمره فيها بالاعتراف بالوهمية الحاكم، فرفض القاضي وثار الناس، ووثبوا على الملاحدة الثلاثة وفتكوا بهم، وانطلقوا يلاحقون أصحاب حمزة فمزقوهم تمزيقا، وقتلوهم أشنع قتل.

مولد الدرزية

جاء الفاطميون إلى مصر يحملون معهم مذهباً دينياً لم يكن للمصريين سابق معرفة به، وهو المذهب الإسماعيلي الباطني الذي يختلف اختلافاً جذرياً عن مذهب أهل السنة الذي أخذ به المصريون، وقد استخدمت الدولة الفاطمية كل فنون الحيل والدعاية والإغراء لاستمالة المصريين وإقناعهم بالانتماء إلى مذهبهم، ولكن المصريين بحكم تراثهم الوسطى المعتدل ونفورهم من المغالاة والتطرف وقفوا موقف الشك والتربص من هذه الدعاوى الغريبة، ورفضوا الاندماج في مذهب الدولة الرسمي، باستثناء قلة انتهازية تظاهرت بالإسماعيلية تحت ضغط الحاجة وبعد أن جعلت الدولة الانتماء إلى مذهبها شرطاً للحصول على الوظائف الحكومية.

والمصادر الشيعية نفسها لا تنكر أن الفاطميين دخلوا مصر يرافقهم التعصب لمذهبهم، وأنهم أكرهوا الناس على اعتناق مذهبهم الإسماعيلي الباطني وترك غيره من المذاهب التي اعتقدها أهل مصر منذ الصغر «راجع كتاب الشيعة في التاريخ، للشيخ محمد الحسين الزين» حتى إذا جاء الحاكم بأمر الله بلغ التعصب مداه مع دخول المذهب مرحلة جديدة، بل وصل إلى نقطة تحول في مسار الدعوة

الإسماعيلية التي كانت تقف عند حدود إضفاء العصمة على الإمام، فأصبحت الآن تدعو إلى تأليه الإمام «الحاكم بأمر الله» على اعتبار أن الله قد حل فيه، وهي الدعوة التي كشف عنها أحد دعاة المذهب هو إسماعيل الدرزي الذي نفذ بجلده وهرب إلى الشام فراراً من انتقام الجماهير المصرية التي ثارت احتجاجاً على الدعوة الإلحادية.

كان الحاكم بأمر الله قد أنشأ «دار الحكمة» على مقربة من مسجده الملاصق لباب الفتوح لتكون هذه الدار أشبه بالأكاديمية يجتمع فيها فلاسفة المذهب الإسماعيلي للعكوف على تطوير المذهب ومده بروافد فلسفية جديدة، وكان دعاة المذهب يقبلون من كافة الأنحاء للانضمام في سلك مجالس الحكمة التأويلية التي ينظمها شيوخ المذهب للدارسين في حلقات سرية. وفي عام ٤٠٥ هجرية وفد إلى مصر رجل من دعاة الإسماعيلية الفرس اسمه حمزة بن علي الزورني، نسبة إلى زَوْزَن وهي من بلاد فرس. وانضم إلى زملائه الفرس في دار الحكمة، وما لبث هذا الرجل أن أصبح ممثلاً لهم في البلاط الفاطمي، وهمزة الوصل بينهم وبين الحاكم بأمر الله الذي اكتشف فيه الإخلاص فضمه إلى حاشيته، وأسكنه قصره، وبلغ حمزة منزلة عالية في سلم التنظيم الإسماعيلي السري، وأصبح واحداً من «الحرم الأربعة» الذين كانوا أشبه بأركان حرب الإمام، فيكونون في معيته دائماً ولا يفارقون مقر قيادته أبداً، وسرعان ما أصبحت له حظوة عند الحاكم لما بذله من جهد في تقوية أواصر الدعوة وتركيز دعائمها في فارس، كما أنه ساهم في خوض غمار الجدل الديني وفلسفة المذهب الذي يبشر به، واستطاع بما أوتيته من

حنكة ودراية ودهاء وخيال خصيب أن يجمع حوله بعض الدعاة ويتفقوا سرّاً للدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، معتمداً في دعوته الجديدة على أصول وأحكام استنبطها من صميم الأصول والأحكام الإسماعيلية.

فالدعوة إلى تأليه الحاكم بزغت من خيال هذا الداعي الإسماعيلي حمزة بن علي الذي اتفق مع بعض زملائه الفرس على عدم الجهر بها إلا في الوقت الذي يراه حمزة مناسباً، ولكن أحد زملاء حمزة، وهو الداعي محمد بن إسماعيل الدرزي، تسرع في الكشف عن أسرار الدعوة الجديدة مما أثار حفيظة حمزة فطرده من حلقة وشنع عليه بأنه كان يتطلع إلى منافسة حمزة وشغل المنصب السامي الذي كان يشغله في بلاط الحاكم.

البداية:

تلك هي الظروف التي نشأت فيها الدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، والتي انبثقت منها الدعوة الدرزية التي حملها محمد بن إسماعيل الدرزي بعد فراره من مصر إلى الشام. ولكن بعض المصادر الدرزية والباطنية تتصل من فكرة تأليه الحاكم وتعتبر ذلك من قبيل التعصب الذي يحمله كتاب المذاهب السنية للمذهب الإسماعيلي، ولذلك آثرت أن أعتمد في شرح أسس الدعوة الدرزية على المصادر الإسماعيلية نفسها حتى أتجنب الاتهام بالتعصب أو التحامل عند الاعتماد على المصادر السنية، وسيكون عمدتنا في ذلك أحد المصادر العصرية في الفكر الإسماعيلي والتي لا يتطرق الشك إليها في

التعاطف مع الدعوة الدرزية باعتبارها ابناً شرعياً للدعوة الإسماعيلية الباطنية، وهذا المصدر هو كتاب «الحركات الباطنية في الإسلام» ومؤلفه هو الدكتور مصطفى غالب من سوريا، وهو أحد أساطين المذهب الإسماعيلي، وإليه يرجع الفضل في الكشف عن المخطوطات والمؤلفات السرية التي لا تزال محفوظة عند شيوخ الإسماعيلية في سوريا واليمن والهند، ويرفضون لأحد من خارج المذهب الاطلاع عليها، وقد نشر الدكتور غالب في مؤلفه المذكور عدداً من الرسائل التي كتبها الدعاة الأوائل في العصر الفاطمي، والتي تحمل اعترافاً صريحاً بالروحية الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وليس من المعقول أن أنقل إليك شيئاً من هذه الرسائل فهي مغرقة في الغموض، ولكني أكتفي بعرض تعليقات الدكتور مصطفى غالب ومنها تستطيع بلوغ المراد.

فقد نشر في كتابه نص وثيقة مخطوطة هامة عشر عليها بين مجموعة من المخطوطات الإسماعيلية التي يملكها وهي: «رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم» صنفها فيلسوف الدعوة الإسماعيلية الأكبر أحمد حميد الكرمانى، باعتبارها وثيقة تاريخية هامة تتحدث عن اختلاف الدعاة بسبب ظهور الدعوة الجديدة التي نشرها الحمزة بن على الزوزنى وأتباعه، والمقصود بالدعوة الجديدة: الدعوة إلى تأليه الحاكم. . وبعد أن فرغ المؤلف من عرض الرسالة التي شغلت ثلاثين صفحة عقب عليها بما يلي:

في هذه الرسالة زبدة آراء الإسماعيلية بالإمامة وبالإمام الحاكم بأمر الله بالذات، وتصديقا لما ذكرناه آنفاً بأن الإسماعيلية يعتبرون

الإمامة رئاسة نفسانية روحانية، ودرجة قدسانية يتألفها الأئمة بتأييد الله تعالى، لذلك نجد مؤلف هذه الرسالة شيخ فلاسفة الإسماعيلية وحكيمها الأكبر أحمد حميد الدين الكرمانى يصبر على أن الإمام الحاكم بأمر الله «عليه السلام» ليس إلا إماماً فى وقته، وقائداً لأهله، وقائماً فى زماته، وشفيعاً للمتعلقين بحبله، وقد اعتبر الكرمانى، من وجهة النظر الإسماعيلية، أن أفعال الحاكم هى أفعال مظلمة حيرت العقول، وأظلمت المقاصد، لأنها عذاب وامتحان لأهل الدعوة عظيم، ومن الملاحظ أن الكرمانى قد شعر بما وصلت إليه الدعوة نتيجة للخلاف الشديد الذى نشب بين الدعاة، فانقسموا إلى عدة فرق واضطربت أحوالهم بسبب الآراء الجديدة التى تدعو بصراحة إلى تأليه الإمام الحاكم بأمر الله. ويعقب على ذلك بقوله:

«وما لا شك فيه بأن الإمام الحاكم بأمر الله «عليه السلام» هو عند الدروز بشر فى الأعين المجردة، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر، ولكن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة «إنسية» سماها الناس الحاكم بأمر الله، مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فىرتديها، ثم ينزعها ويرتدى غيرها، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه فى شىء، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التى اتخذها، ولا هى شبيهة به، وهو يظهر فى هذه الصورة الناسوتية المتغيرة، ففى كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الأخرى.

رموز:

هذه خلاصة الرموز والاصطلاحات التى وردت فى الكتب

الدرزية المقدسة والتي تذكر أن للإمام الحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تترك بالحواس ولا بالأوهام، وهي نفس الرموز والاصطلاحات التي وردت في أكثر الكتب الإسماعيلية التي تبحث في كنه الخالق جل وعلا وطريقة توحيده، وينزع الدكتور مصطفى غالب أن الدروز في ذلك لا يختلفون عما يقول به جمهور المسلمين من السنة والشيعة، وهو ينعى على الذين فسروا المصطلحات التأويلية الباطنية التي وردت في الكتب الدرزية المقدسة تفسيراً غرضياً ويتهم هؤلاء المفسرين بأنهم يقصّدون من وراء ذلك إطلاق الإلوهية على شخص الحاكم بأمر الله بالذات بينما غاب عن مفهوم هؤلاء بأن الدروز في توحيدهم لمعبودهم لا يخرجون عن توحيد المسلمين لخالقهم سبحانه وتعالى (١١).

وأنت ترى من هذا التناقض براءة الإسماعيلية في تأويل أفكارهم، وادعائهم بأنها لا تخرج عن أصول التوحيد عند بقية المذاهب الإسلامية، وحجتهم في ذلك أن المذاهب الأخرى لم تتسلح بالفلسفة ووقفت من التفكير الفلسفي موقف المتردد، أما الإسماعيلية فقد القوا بأنفسهم في خضم التيارات الفلسفية واعتبروا ذلك شكلاً من أشكال الانفتاح والتحرر الفكري، ولكنهم في شططهم وشطحاتهم الفلسفية خلعوا ريق الإسلام. كما يقول الشيخ أبو زهرة - وأطرحوا معانيه، ولم يبقوا لأنفسهم منه إلا الاسم، أما الدكتور مصطفى الشكعة فيرى أن عقائد الإسماعيلية ليست مستمدة بشكل مباشر من الكتاب والسنة، وإنما دخلتها فلسفات أثرت فيها مثل الفيثاغورية «نسبة إلى الفيلسوف الإغريقي فيثاغورس» والأفلاطونية

الحديثة «نسبة إلى الفيلسوف السكندري أفلوطين» فكما أن الفيثاغوريين جعلوا الأعداد أصولاً لفلسفتهم، كذلك فعل الإسماعيلية حينما جعلوا الأعداد أصولاً لعقيدتهم، فظهرت عندهم الأعداد وما يقابلها من أصول دينية، فالواحد عندهم هو العقل الكلى أو القلم، والاثنان هما: العقل الكلى والنفس الكلية، أى القلم والروح، والثلاثة هم: محمد وعلى وفاطمة، والخمسة هم: القلم واللوح وميكائيل وإسرافيل وجبريل، وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين، وهم الإمام والحجة والداعى والمأذون والمكاسر... وهكذا بنوا عقيدتهم على الأعداد وهى الفلسفة الفيثاغورية التى كان المسلمون قد عرفوها نتيجة لنشاط الترجمة من اليونانية، فانتشرت فى الأقطار الإسلامية فالتقطها الإسماعيلية وبنوا عقيدتهم على أساسها وصبغوها بالصبغة الإسلامية.

وكما تأثر الإسماعيلية بالفلسفة الفيثاغورية تأثروا أيضاً بنظرية أفلاطون التى تقول بأن ما فى العالم الحسى أشباح لمُثل فى العالم العلوى، والإسماعيلية تقول إن ما فى عالم الدين مُثل لمُثولات فى العالم الروحانى، وأيضاً أخذ الإسماعيلية عن أفلوطين السكندري نظريته فى الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلى، وأن العالم خلق بواسطة اللوجوس «الكلمة» فقال الإسماعيلية أن الكلمة التى خلق عنها العالم هى كلمة «كن» التى وردت فى الآية الكريمة «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» وأن كلمة «كن» مكونة من الكاف والنون، فالكاف رمز على القلم أو العقل الكلى، والنون رمز على اللوح أى النفس الكلية، ولذلك فسر الإسماعيلية قوله تعالى «نون

والقلم، أن الله عز وجل يقسم بأعز مخلوقين عنده وهما اللوح والقلم.

ويطول بنا المقام لو تتبعنا أصول الفكر الإسماعيلي في الفلسفات الأجنبية، ولكنها في النهاية تكون صورة من الوان شتى تتمازج أو تتنافر حسب براءة حامل الريشة، وإذا كانت تتسبب إلى الإسلام، فإن مبادئ الإسلام وعقائده، كما يقول الدكتور الشكعة، أسمى من كل تلك الفلسفات وأرفع من أن ترتبط بها أو تتذرع بما تضمنه بين دفتيها، فالعقيدة الإسلامية شريعة سماوية، وأما تلك الفلسفات فأفكار أرضية دنيوية.

خلاف:

ونعود سريعا إلى أوليات القرن الخامس الهجري لنرى ما كان من أمر الخلاف الذي نشب بين مؤسسي الدعوة الدرزية: حمزة بن علي وزميله محمد بن إسماعيل الدرزي، ونفهم من الروايات الإسماعيلية أن حمزة عرض على أعوانه الاستجابة إلى دعوته الجديدة ولكنهم شرطوا عليه أن يأتيهم بتوقيع الإمام الحاكم بأمر الله، مما يعني أن الحاكم كان على علم بدعوة حمزة وأنه كان على اتصال وثيق به وعلى العموم يُشتَم من رسائل حمزة بأنه قد تمكن سرا من استمالة عدد كبير من الدعاة إلى جانبه، وبعد أن نظم دعوته الجديدة ووضع لها المراتب والحدود - على النمط الإسماعيلي - أمر الكل بالستر والتقية وبعدم البوح بشيء مما يضمرون، ولكن الدرزي اختلف مع حمزة على مناصب الدعوة ونازعه الرئاسة والألقاب وذهب إلى أنه أفضل وأحق

من حمزة، فلما فقد الدرزي الأمل في تحقيق أطماعه تسرع في الكشف عن أسرار الحركة الجديدة قبل أن يجهر بها حمزة، ويقال إن داعية آخر هو الفرغانى جهر بالدعوة وكتب الرقاع إلى العلماء يطلب منهم الدعوة إلى ألوهية الحاكم، فاستدعاه الحاكم وأكرمه ومنحه الأعطيات وأركبه فرسا مطهما وسيره في موكبه، غير أنه لم تمض على ذلك عدة أيام حتى وثب على الفرغانى رجل من أهل القاهرة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه فغضب الحاكم بأمر الله وأمر بإعدام القاتل ودفن الفرغانى على نفقة القصر في موكب رسمى .

ونفهم من ذلك أن الدعوة إلى ألوهية الحاكم بدأت تثير غضب أهل القاهرة، وأن كان الدكتور مصطفى غالب يقول في كتابه : إن دعاة المذهب الجديد ظلوا ينشرون دعوتهم في الخفاء ويدعون الناس سرا لمبادئهم وتعاليمهم فاستجاب لهم «خلق كثير» ، حتى قام الدرزي وأعلن الدعوة في سنة ٤٠٧ هـ مما أدى إلى انقسام الدعاة والمؤمنين بالمذهب الجديد إلى فريقين : فريق الدرزي، وفريق حمزة . وتقول حوادث التاريخ إن الدرزي قام ومعه ٥٠٠ من أتباعه بزيارة قصر الحاكم بأمر الله فهاجمهم جموع الناس والجند وقتلوا منهم نحو أربعين رجلا وهرب الباقيون، وفي اليوم التالى هاجم الغوغاء مقر حمزة في مسجد ريدان وكان معه اثنا عشر رجلا فقط، وكادوا يُقتلون لو لم يصدر الحاكم أمرا بوقف القتال . . أما الدرزي فقد تضاربت الأقوال حوله ، فالأنطاكي وابن العميد، يذكران أنه قتل في الثورة سنة ٥٠٠ هـ . أما ابن البطريق فيذهب إلى أن أحد غلمان الأتراك وثب عليه وهو في موكب الحاكم فقتله ثم نهبت داره، وافتتحت القاهرة،

وأغلقت أبوابها ولبثت الفتنة ثلاثة أيام وقتل فيها جماعة من الدرزية، ولكن حمزة بن علي يذكر في رسائله بأن أصحاب الدرزي قد اعتقلوا وأودعوا السجن، وقيل إن الدرزي استطاع أن يفلت من قبضة الغوغاء ويهرب من مصر ثم توجه إلى وادي التيم بالشام، وظل يبشر أهل الجبال بدعوته. ولذلك عرف أهالي هذه المنطقة الذين اعتنقوا دعوته «بالدروز» ويقال إن الحاكم بأمر الله هو الذي أمره بالرحيل إلى هذه المنطقة في الشام، وزوده بالمال اللازم ليكون في مأمن من الثورة التي اجتاحت القاهرة بسبب دعوته الإلحادية.

ثورة القاهرة،

بعد اختفاء «الدرزي» خلا المسرح لخصمه حمزة الزوزني الذي اتخذ من مسجد (تبر) بالمطرية مقراً سرّياً للاجتماع بأعوانه وبث دعوة الإلحادية، ولم يكن هذا الاختيار اعتباطاً، فقد كانت المطرية في ذلك الوقت من المناطق المهجورة البعيدة عن حركة الجماهير في القاهرة، ولكن أهل القاهرة تعقبوه حتى عرفوا وكره الجديد، فهاجموه، وأحرقوا باب المسجد ولكنه احتوى وراء باب من الحجر، والقصة يرويها حمزة نفسه ولكن في القالب الخرافي الذي برع فيه الإسماعيلية: وأضفى عليه مسحة من الخوارق والمعجزات الباطنية التي هي سمة من سمات الفكر الإسماعيلي فيقول: «إن الباب الحجري القوي هو خوخة ضيقة لا يستطيع أحد أن يدخلها إلا إذا كان من أصحابها وأربابها... وقد اجتمع عند المسجد سائر الأتراك بالجواشن والزررد والخذ (وهي من عدد الحرب) ومن جميع العساكر

والرعية زايد عن عشرين ألف رجل . وقد نصبوا على القتال بالنفط والنار ، ورماة النشاب والحجارة ، ونقب الجدار والتسلق إلى الحيطان يوم كامل ، وجميع من كان معى فى ذلك اليوم اثنا عشر نفسا ، منهم خمسة شيوخ كبار ، وصبيان صغار لم يقاتلوا ، فقتلنا من المشركين (يقصد المسلمين من أهل السنة) ثلاثة أنفس ، وجرحنا منهم خلقا عظيما لا يحصى ، حتى طال على الفئة القليلة الموحدة (يقصد أتباعه) القتال ، وكادت الأرواح تتلاشى ، وتبلغ التراقى . . .

الخلاص من الحاكم:

ماذا تستتج من هذه القصة التى يغلب عليها الطابع الأسطورى؟ إنها تؤكد المعنى الذى يهمنى التركيز عليه ، وهو انتفاضة المصريين على دعاوى الإلحاد، الأمر الذى أدى إلى زعزعة الدولة الفاطمية ، وتعريض العرش الفاطمى للسقوط ، لولا تدخل (ست الملك) أخت الحاكم بأمر الله ، فسارعت بتدبير مؤامرة للخلاص من أخيها المعتوه ، فاختفى فى ظروف غامضة أثناء إحدى جولاته الليلية فى تلال المقطم ، وجاء اختفاء الحاكم بأمر الله ليضع الخاتمة المأساوية لهذا الشاب المغرور الذى لم يتعظ من درس فرعون حين قال (أنا ربكم الأعلى) . . . وكانت نهاية كل منهما متشابهة . . . ذاك ابتلعه اليم فكان من المغرقين ، وهذا التقمه المقطم فكان من الغابرين . وإن كان أتباعه «الدروز» لا يزالون حتى يومنا هذا يعتقدون فى عودته أو رجعته طبقاً للمعتقدات الشيعية .

صلابة المصريين،

تلك حلقة من حلقات التاريخ المصرى فى مطلع الألفية الثانية لم تأخذ حقها فى الذبوع والانتشار، برغم أهميتها القصوى فى الكشف عن صلابة الشعب المصرى، ورقضه الصارم لكل ما يمس عقيدته الخالصة فى التوحيد، والمؤسف أن هذه الصفحة المجيدة - من تاريخ مصر فى العصر الفاطمى - ضاعت فى زحام الدعاية التى يروج لها بعض أنصار الفاطمية عن الأعياد والاحتفالات والسهرات والنفحات وأصناف الحلوى التى كانت سمة من سمات العصر، ولم تكن كل هذه المباحج إلا ستاراً لإخفاء حقيقة الدعوة الفاطمية وما تحمله من أسرار غريبة وأفكار شاذة، ومعتقدات مناقضة للعقيدة الإسلامية الخالصة، ولم تكن دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله إلا تطوراً طبيعياً للفكر الإسماعيلى الذى جاء به الفاطميون، وظل خافياً عن الشعب المصرى طوال عهد المعز لدين الله، وابنه العزيز، ثم كشفت عن وجهها السافر فى عهد الحاكم بأمر الله.

كانت الدعوة المذهبية الفاطمية تأخذ شكلاً علنياً فى الجامع الأزهر وتظاهر بأنها لا تناقض عقيدة أهل السنة، وتتوازى مع هذه الدعوة العلنية الظاهرية، (مجالس الدعوة) السرية وتجرى فى دهايز القصر الفاطمى، حيث يعكف فقهاء المذهب الإسماعيلى على تدريب وتنظيم الدعاة لينطلقوا إلى الأمصار وهم مدربون على فنون الدعاية لكسب الأنصار، وتهيئة الجماهير لقبول مذهبهم، وكان تلقين الدعوة الإسماعيلية هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة تحت إشراف الخليفة الفاطمى، حتى يمكن القول أن نظام الحكم الفاطمى كان أشبه بجمعية

سرية هدفها هدم الإسلام من داخله تمهيداً لإقامة الدعوة الإسماعيلية التي تستمد أصولها من مذاهب وتيارات فلسفية مناقضة للإسلام. فلما جاء الحاكم بأمر الله أقام دار الحكمة لتكون مقراً لفلاسفة المذهب من كافة الأصقاع الإسماعيلية وقارس بصفة خاصة، ووضع الخطط والتوجيهات والنظم التي تحقق الغرض النهائي للدعوة. ويبدى الأستاذ محمد عبد الله عنان دهشته من أن تتخذ الخلافة الفاطمية هذه الخطوة الجريئة على يد الحاكم بأمر الله، وهو صاحب الذهن المضطرب الهائم، ولكن هذا الذهن كان بطبيعة تكوينه وميوله، واتجاهه إلى عوالم الخفاء والغيب: حرياً باتخاذ هذه الخطوة وكانت ظروف العصر، واتساع نطاق الدعوة الفاطمية، واضطرام المعركة المذهبية بين الخلافة الفاطمية وخصومها، مما يدعو إلى قيام هذا المعهد، ليشراف بطريقة منظمة على بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها، وهو «دار الحكمة المصرية». ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر، الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد، أو بالحرى هذه الجامعة الغربية، ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة تضم عدة كليات دينية وعلمية وأدبية، وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر بجوار «باب التبانين» وتضم أقساماً: للقرآن، والعلوم الدينية، والفلك، والطب، والنحو وعلوم اللغة، وعُيِّن لها أقطاب الأساتذة فى كل علم وفن. ورصدت لها الأموال الجمة. ووقف الحاكم بأمر الله عليها قسماً من أملاكه الخاصة.

• فى البداية: اتخذت دار الحكمة طابعاً حراً، فدعى إليها الأساتذة من الشيعة والسنة، وقرئت بها فضائل الصحابة، ولكن-

فيما بعد- أبعد عنها أساتذة السنة، وقتل بعضهم، وتأكدت بذلك صفتها المذهبية الخالصة، ولم يكن هذا المظهر العلمي في الواقع إلا ستاراً للغاية الأصلية التي أنشئت دار الحكمة لتحقيقها، وهي بث الدعوة الفاطمية السرية بطريقة علمية منظمة، تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية، بالأصول والمبادئ المذهبية، وتكون أبعد أثراً في غزو الأذهان والعقائد من مجالس الحكمة التي كانت تعقد في القصر، وبهذا تجتمع جهود الدعاة في مركز رئيسي يحتشد فيه الإسماعيليون من كل صوب، ليقوموا بواجبهم في حمل الدعوة وبثها في سائر المجتمعات والأنحاء.

الدعوة السرية:

ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن الخلافة الفاطمية كانت لها دعوة مذهبية خاصة، وهذه حقيقة سجلها مؤرخو الدولة الفاطمية أنفسهم كالسبحي، وكان صديقاً للحاكم بأمر الله، أو المقرئ الذي عرف عنه تعاطفه مع هذه الدولة.. ولكن ماذا كان موضوع تلك الدعوة الفاطمية؟

لقد حفظ لنا المؤرخون المتأخرون مثل النويري والمقرئ شذورا ضافية من محتويات الدعوة السرية وتفاصيلها.. ومن الطبع أن تكون مادتها الأولى ما تقوم عليه الدعوة الشيعية الفاطمية من الأصول والمبادئ وأن تعرض شئون النبوة والإمامة والعقيدة الدينية طبقاً لهذه الأصول، ولكن من خلال الدراسات القيمة التي قام بها المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان نكتشف أن الدعوة الفاطمية تذهب إلى

أبعد من ذلك ، وأنها تستحيل فى النهاية إلى عقيدة فلسفية حرة مشبعة بألوان واضحة من الإنكار والإلحاد . وتجربى على نسق الجمعيات السرية فى تسع مراتب متدرجة فى الأهمية والخطورة ، يعرضها الدعاة بالتعاقب ، طبقا لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها ، فلا يصل إلى مراتبها العليا إلا من كان موضع الثقة ، حريصاً على السر ، وكان من الأولياء المخلصين .

ولا يتسع المقام لشرح هذه الدعوات التسع ، التى تتدرج شيئاً فشيئاً من خلال عملية مسح المخ ، وإزالة الثوابت الدينية المستقرة ، حتى تنتهى إلى خلع عقيدة الإسلام ، وإسقاط التكاليف الشرعية ، وهى توضح لنا أن الدعوة الفاطمية السرية لم تكن سوى دعوة فلسفية صيغت بمنتهى الذكاء والمهارة ، ونظمت مراتبها بدقة مدهشة تنم عن براعة أولئك الذين صاغوها ، وفهمهم العميق لنفسية الكافة ، وبراعتهم فى التأويلات الباطنية والشروح الإلحادية ، ولا ريب أن الخلافة الفاطمية كانت ترمى إلى غاية سياسية أكثر منها دينية ، وهى حشد العالم الإسلامى تحت زعامتهم وتوكيد سلطانهم ، واتخاذ التنظيم السرى أداة لغزو العقول والعقائد . من طريق الدين والفلسفة الكلامية ، وقد استنبط الفاطميون فكرتهم من الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية السرية التى نظمت فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى جنوب فارس ، وأسفرت بادئ بدء عن فورة القرامطة فى البحرين ، وقد نشأت هذه الدعوة ونظمت مبادئها السرية لأول مرة على يد جماعة من الثوريين الملاحدة للجوس الذين تظاهروا بالإسلام وعملوا على غزو العقيدة الإسلامية وهدمها . ونشر للجوسية بالتأويلات التى

يتأول بها دعائهم على القرآن والسنة، واعتبار أن لكل شيء ظاهراً وباطناً، حتى القرآن الكريم نفسه، جعلوا له ظاهراً وباطناً، أما الظاهر: فهو دلالات ألفاظه العربية حقيقة أو مجازاً، وأما الباطن فهو ما وراء هذا الظاهر أو هذه الدلالات، وهذا لا يفهمه - في زعمهم - إلا أئمة المذهب. وهذا الباطن لا تقيده دلالات الألفاظ العربية، ومعانيها اللغوية، وليس الظاهر إلا رموزاً وإشارات لا يفهمها العوام، الذين هم أهل السنة في نظرهم، فأهل السنة بكل علمائهم بدءاً من الصحابة الكرام حتى الآن - إنما هم عوام وجهال في نظرهم لأنهم لا يعلمون علمهم الباطن، وقد أدت بهم هذه النظرة الباطنية التي تأويل معاني القرآن الكريم تأويلاً غريباً يناقض دلالات اللغة العربية، وقد أورد الدكتور عبدالمنعم النمر نماذج لهذه التأويلات الشاذة منها ما قالوه في تفسير قوله تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ فزعموا أن المراد من قوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله «يرسل السماء» المراد بالسما «الإمام»، والماء المdrار: العلم ينبع من الإمام، ومن قوله «يمدكم بأموال» الأموال هي العلم، و«البنين» هم المستجيبون للدعوة «ويجعل لكم جنات» فالجنات هي الدعوة السرية الباطنية. والأنهار هي العلم الباطني.

ومثل آخر عن تأويلهم للآية الكريمة في سورة الحشر ﴿كَمَثَلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾. فقالوا: إن الشيطان هو عمر،

والإنسان هو أبو بكر . ومعنى : اكفر . . لا تؤمن بخلافة علي بن أبي طالب .

ومثل ثالث : « الشمس والقمر بحسبان » . الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وإيليس وآدم في القرآن هما : أبو بكر وعلي .

العقل الكلى،

. . وعلى هذا المنوال أولوا كثيرا من المصطلحات العلمية ، كما ذكر ابن الجوزى في كتابه عن (القرامطة) الذين زعموا أن كل ما ذكر من التكاليف فرموز إلى باطن ، فمعنى الجنابة عندهم : مبادرة المستجيب بإفشاء الأسرار قبل أن ينال رتبة الاستحقاق ، ومعنى الاغتسال من الجنابة : تجديد العهد على من فعل ذلك ، ومعنى الزنا : إلقاء نطفة العلم الباطنى إلى نفس من لم يسبق معه عقد العهد ، ومعنى الاحتلام : إفشاء السر فى غير محله ، ومعنى الصيام : الإمساك عن كشف السر ، ومعنى البعث : الاهتداء إلى مذهبهم الباطنى . ومعنى الحج : زيارة الإمام .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن الإسماعيلية جعلوا للأئمة صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم فى مرتبة لا تمت إلى البشرية بصلة بالرغم من إلحاح كتابهم فى القول بأن الأئمة من البشر وأنهم خلقوا من طين ويتعرضون للآفات والأمراض والموت مثل غيرهم ، ولكننا نجد فى تأويلاتهم الباطنية أن الإمام هو «وجه الله و«يد الله» و«جنب الله» وأنه هو الذى يحاسب الناس يوم القيامة

فيقسمهم بين الجنة والنار، وأنه هو «الصراط المستقيم» و«الذكر الحكيم» و«القرآن الكريم» إلى غير ذلك من الصفات، والإسماعيلية الذين تحدثوا عن الإمام على هذا النحو، نراهم قد جردوا الله سبحانه وتعالى من كل صفة، فتوحيد الله عندهم هو ينفي جميع ما يليق بمبدعاته (التي هي الأعيان الروحانية) ومخلوقاته (التي هي الصور الجسمانية) من الأسماء والصفات، فأسماء الله الحسنى التي نسبها الله تعالى لنفسه في القرآن الكريم، لا تقال لله تعالى، بل جعلوها للعقل الكلي الذي تحدث عنه الفلاسفة، ووصفوا هذا العقل الكلي بكل صفات الكمال على نحو ما ذكره الفلاسفة الأقدمون تماماً، وصبغوا هذه الأقاويل القديمة بالصبغة الإسلامية. فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلي والنفس الكلية، وبمعنى آخر: إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيلية على العقل الكلي، فهو «الإله» عند الإسماعيلية. ويقابله في العالم الأرضي «الإمام» ومعنى هذا عندهم أن كل الصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضاً صفات وأسماء للإمام، فالإمام إذن هو: الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، المنتقم، الجبار... إلخ، ولذلك خاطب ابن هاني الأندلسي الشاعر للمعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

عصر المستنصر بداية النهاية

يمثل عهد الخليفة «المستنصر بالله» نقطة التحول في تاريخ الدولة الفاطمية والانتقال بها من عصر القوة والازدهار، إلى عصر الضعف والاحتضار وجرت على الدولة الفاطمية سنة الحياة التي تجري على الدول والحضارات، كما تجري على الكائنات الحية، فقد عبرت الدولة الفاطمية مرحلة الفتوة والشباب في عهد خلفائها الأوائل: المعز لدين الله وابنه العزيز وحفيده الحاكم بأمر الله حتى إذا جلس المستنصر - حفيد الحاكم - على عرش الخلافة في عام ٤٢٧ هـ. كان الخط البياني للدولة قد بدأ يميل نحو الأفول والانحدار خاصة أن فترة حكم المستنصر (٤٢٧ - ٤٧٨ هـ) بلغت ستين عاما، وهي أطول فترة قضاها حاكم في تاريخ الإسلام.

لقد آلت الخلافة إلى «المستنصر» بعد أبيه «الظاهر» وفقا لنظام «الإمامة» الشيعي الذي يعتمد انتقال الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر بصرف النظر عن سن الوريث، وعندما ساءت الأقدار «المستنصر» إلى هذا المنصب الديني والسياسي الخطير، كان طفلا صغيرا لا يزيد عمره على سبع سنوات فكان أمرا طبيعيا أن تنتقل السلطات إلى أمه،

وكانت جارية سوداء اشتراها الظاهر فولدت له ابنتهما «المستنصر»
وآلت إليها مقاليد الأمور وصارت المهيمنة على كل شئون الدولة . .
تحكم وتتحكم نيابة عن ابنها الطفل .

كانت مصر في ذلك الوقت تعاني من الصراع الدموي بين طوائف
الجند الذين جلبهم الخلفاء الفاطميون من شتى الأجناس ، وجعلوا
منهم قوام الجيش ، كان هناك بقايا المغاربة الذين جاءوا في جيش
«جوهري» أثناء فتح مصر سنة ٣٥٨هـ وبعد نضوب المورد المغربي لجأ
الفاطيون إلى جلب الأتراك ، وكانت كل طائفة تعمل على تثبيت
نفوذها ، والحصول على أكبر قدر من الامتيازات ، وكان الوزراء
يشعلون نار الصراع بين قادة الجند فيقربون أحد الفريقين ليكون سندا
لهم في لعبة الصراع على النفوذ ، وكانت أم المستنصر تعمل على
تغيير الوزراء واستبعادهم أو تقريبيهم بصورة لم يسبق لها مثيل . حتى
بلغ عدد الوزراء الذين تولوا السلطة التنفيذية أربعة وخمسين وزيرا
خلال فترة زمنية لا تزيد على ستة عشر عاما . وازدادت الأحوال سوءا
عندما زجت أم المستنصر بنفسها في صراعات الجند ولجأت إلى شراء
العبيد السود من أصل جنسها لتكبح بهم جماح المغاربة والترك ،
وصار الجند السود يمثلون الضلع الثالث في مثلث الصراع ، حتى بلغ
عددهم خمسين ألف جندي كانت تمدهم بالمال والسلاح
والامتيازات ، مما جعل البلاد مسرحا للفوضى ، وبلغت حدة الصراع
ذروتها عندما قبضت أم الخليفة يدعا عن دفع مرتبات الجند الترك ،
وعجزت عن الوفاء بمرتباتهم المتراكمة والتي بلغت ٤٠٠ ألف دينار ،
فما كان من هؤلاء إلا أن كبسوا على شوارع القاهرة ينهبون المتاجر ،

ويقتحمون البيوت، ويسلبون المارة، بل لم يتورعوا عن اقتحام قصر الخلافة ونهب ما فيه من تحف ثمينة ونادرة تعويضاً عن مرتباتهم المقطوعة.

نهبوا قصر الخليفة:

يروى القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه (الذخائر والتحف) وصفا للمقتنيات التى نهبها الجند «من خزائن قصر أمير المؤمنين المستنصر بالله حين تغلب المارقون على دولته، واستباح المنافقون ما وجد فى بيت ماله وحوزته واقتسم قاداتهم دور المكس (الجمارك) والجبايات، فإنه لم يخرج بمثله فيما تقدم من الدول منذ ظهر الإسلام إلى وقتنا هذا نفاسة وجلالة وغرابة وكثرة وحسنا وملاحة وجودة وسناء قيمة وغلة ثمن، على أن الذى أخرج يسير من كثير، وقليل من جليل، حتى أنه نقل منه مياسير التجار إلى سائر الممالك ما صار جمالا للملوك إلى أن امتلأت قياسر (وكالات) مصر وأسواقها بالأمثلة المخرجة من قصر السلطان المبيعة على الناس، المنفق ثمنها فى أعطيات الأتراك، ثم كثر السلب والتشليح فى الطرقات نهاراً، والخطف والقتل ليلاً، وخاف التجار من النهب، وعادوا إلى ما فى أيديهم مما اشتروا من الأشياء الثمينة المنسوجة بالذهب، وقصب الفضة والآلات المطعمة بالزمرد والفيروز، فأحرق جميعه فى النار، وسبك ذهبه، وأحرق حتى لم يبق من الصناعات من يقدر على عمل مثله وصار كالمس الذاهب. وأعلمنى من له خبرة بما فى «خزانة البنود» أن مبلغ ما كان فيها من سائر الأمثلة والتحف والزخائر. . لا تعرف

قيمته عظما، وأن المتفق عليه فى كل سنة من سبعين ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار، وأن سائرہ احترق حتى لم يبق منه باقية . . إلخ .

الشدة المستنصرية،

كانت الصراعات الطائفية أول مسمار دق فى نعش الدولة الفاطمية، أما المسمار الثانى فهو تلك المجاعة التى عمت البلاد طوال سبع سنين لم تشهد مصر لها مثيلا منذ السنوات السبع العجاف فى عصر يوسف الصديق، وقد فاض المؤرخون فى شرح النكبات التى عاناها المصريون طوال المجاعة وسموها «الشدة المستنصرية» نسبة إلى الخليفة المستنصر. فقد نقص النيل حتى بارت الأرض، وشح القوت، وانتشرت الأمراض والأوبئة، وبلغ سعر الرغيف خمسة عشر دينارا، ويحث الناس عن القطط والكلاب ليأكلوها، وبلغ سعر الكلب خمسة دنائير والقطعة ثلاثة واشتدت المحنة حتى أكل الناس بعضهم بعضا كما يذكر المقرئى، وكان الرجل يخطف ابن جاره فيشويه ويأكله. وضبطوا رجلا من السود كان يقف على سطح بيته حتى رأى امرأة فى الطريق فقذفها بحبل فى نهايته كلابات من الحديد ثم جذبها حتى سقطت فى يده، فأخذها إلى داخل بيته وأخذ يقطع من فخذها هبرا من اللحم يسلقها ويأكلها، وبعد يومين سمع الجند استغاثتها فخلصوها من المجرم وضربوا عنقه، وبلغ من الأزمة أن الخليفة اضطر إلى أن يبيع كل ما فى قصره من ثياب وأثاث وسلاح، وصار يجلس فى قصره على حصير، وتعطلت دواوينه وذهب

وقاره، وكانت إحدى السيدات تتعطف عليه برغيفين كل يوم، ويقال إن أمه وبناته حاولن الفرار إلى بغداد بسبب الجوع والفاقة .

ويروى المقرئ في (إغاثة الأمة بكشف الغمة) أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغار وهم ييكون من الجوع فلبأت إلى (شكومية) حليها وأخذت تقلب ما فيها من جواهر ومصوغات، ثم تتحسر لأنها تمتلك ثروة طائلة ولا تستطيع شراء رغيف واحد، فاختارت عقدا ثميناً من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار، وخرجت تطوف أسواق القاهرة والفسطاط فلا تجد من يشتريه . وأخيراً استطاعت أن تقنع أحد التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق، واستأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى هاجمته جحافل الجوع، فاغتصبوا الدقيق، وعندئذ لم تجد مفراً من أن تزاحمهم حتى اختطفوا لنفسها حفنة من الدقيق وانطلقت تجري بها حتى وصلت إلى بيتها، وحزنت لما حدث من الجماهير الجائعة، فعكفت على عجن حفنة الدقيق، وصنعت منها قرصاً صغيرة وخبزتها، ثم أخفتها في طيات ثوبها، وانطلقت إلى الشارع صائحة: الجوع . . الجوع . . الخبز . . الخبز . . والتف حولها الرجال والنساء والأطفال، وسارت معهم إلى قصر الخليفة المستنصر، ووقفت على مصطبة ثم أخرجت قرصة من طيات ثوبها ولوحت بها وهي تصيح: أيها الناس . . فلتعلموا أن هذه القرصة، كلفتني ألف دينار . . فادعوا معي لمولاي السلطان . . وسمع «المستنصر» الصياح فأطل من شرفته، وعلم بما حدث، فاشتد به الجزع لما أصاب الرعية، وأرسل فاستدعى والي القاهرة، وشدد عليه

بأن يتخذ التدابير الحاسمة كي تخرج الغلال إلى الأسواق، وإلا فصل رأسه عن جسده.

وكان الوالى ماكرا، وزاده الحرص على حياته مكرا ودهاء، فخرج فى الحال، واستدعى جماعة من المجرمين المحكوم عليهم بالسجن سنوات طوالا، وألبسهم ملابس التجار الأثرياء، وحجزهم فى غرفة من داره، ثم أرسل فاستدعى تجار الغلال بالقاهرة والقسطنطينية، فلما تكامل عددهم أمر حاجبه فأحضر واحداً من المجرمين، ولم يكده الرجل يدخل وهو يرقل فى ثيابه الأنيفة كأنه أغنى التجار وأوسعهم رزقا، حتى فاجأه الوالى بقوله: «ألم يكفك أيها التاجر أن عصيت أمر مولانا الخليفة حتى حبست الغلال ومنعتها عن الأسواق وتسببت فى هذه المجاعة التى كادت تودى بالشعب؟ وقبل أن يقيق الرجل من ذهوله، وقبل أن يفتح فمه بكلمة للدفاع عن نفسه كان السياف قد أطاح برأسه، وفعل نفس الحيلة مع مجرم آخر... وهنا علت وجوه التجار صفرة الموت، فخروا راكعين متوسلين العفو عنهم على أن يخرجوا ما فى مخازنهم من قمح ودقيق إلى الأسواق، ويبيعوا رطل الخبز بدرهم واحد، ولكن الوالى لم يقبل، وطلب إليهم أن يكتفوا بدرهم واحد ثمنا لرطلين، فأعلنوا موافقتهم على طلبه، وفى ساعات قليلة كانت الأسواق قد امتلأت بالقمح والدقيق والخبز، ووقف الباعة أمام حوانيتهم ينادون على الخبز كل رطلين بدرهم، وانفجرت الأزمة إلى حين: (من كتاب: دراسات فى التاريخ الإسلامى للدكتور جمال الدين الشيال).

لم يبق إلا عظامهم:

ويروى السيوطي في (حسن المحاضرة): وفي سنة ستين وأربعمائة كان ابتداء الغلاء العظيم بمصر، الذي لم يسمع بمثله في الدهور من عهد يوسف الصديق عليه السلام، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية بحيث أكلوا الجيف والميتات، وأفنيت الدواب، ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة خيول بعد العدد الكثير، ونزل الوزير يوما عن بغلته، ففعل الغلام عنها لضعفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فقبض عليهم ثم صلبوا، فاغتتم الجياع ستار الليل فهجموا على جثث المصلوبين وأكلوا لحومهم ولم يبق إلا عظامهم، وقبض على رجل كان يقتل النساء والصبيان ويبيع لحومهم ويدفن رءوسهم وأطرافهم، فقتل، واشتد الغلاء والوباء حتى أن أهل البيت كانوا يموتون في ليلة واحدة، وكان يموت كل يوم على الأقل ألف نفس، ثم ارتفع العدد إلى عشرة آلاف، وفي يوم مات ثمانية عشر ألفا، وكان «المستنصر» يتحمل نفقات تكفين عشرين ألفا على حسابه، حتى فنى ثلث أهل مصر، وقيل إنه مات مليون وستمائة ألف نفس، ونزلت الجند لزراعة الأرض بعد أن هلك الفلاحون، وخلت القرى من سكانها، وخربت ضواحي القسطاط - العسكر والقطائع - وتحولت إلى أطلال خربة.

انفراج المحنة:

في عام ٤٦٥ هـ بدأت المحنة تنفرج، وعاد النيل إلى معدله المعتاد وأخذت الحياة تتجدد في شرايين البلاد. وكان على الخليفة المستنصر

أن يستفيد من دروس المحنة التي وضعت البلاد على حافة الهلاك بسبب صراعات الجند، وأن يعمل على استتباب الأمن والقضاء على رءوس الفتنة، ولكن كيف السبيل وقادة الترك والسودان والمغاربة يتحكمون في شئون الدولة. عندئذ أشار عليه وزيره المقرب «أبو الفرج محمد بن جعفر بن المغربي» وكان قائما على ديوان الإنشاء بأن يستعين بحاكم عكا القوي بدر الجمالي ويستحضره إلى مصر ويعهد إليه بتدبير الأمور وإعادة الأمن إلى نصابه وأستجاب المستنصر لمشورة وزيره، وأوفده إلى عكا ليعرض على حاكمها المجيء إلى مصر ليقوم بالمهام الكبرى الملقاة على عاتقه، وبعد أن قلب بدر الجمالي الأمور من كافة وجوهها، وافق على العرض بشرطين:

الأول: أن يحضر إلى مصر ومعه رجاله وجنوده.

الثاني: أن تطلق يده في القضاء على رءوس الجند الذين تسبوا في إفساد البلاد والعباد.

ووافق الخليفة المستنصر على شروط بدر الجمالي، وفي يناير سنة ١٠٧٤ الموافق شهر جمادى الأولى من سنة ٤٦٦ هجرية، وصل بدر الجمالي على رأس قواته إلى دمياط، ومنها إلى قليوب، حيث أقام بها ليلتين دون أن يشعر أحد بقدومه، ودخل القاهرة سرا، وأصبح الناس ذات يوم ليسجدوا شوارع القاهرة قد خلت من الفوضى، وعندما سألوا عن السبب علموا أن بدر الجمالي قد أدار مذبحة انتهت بالقضاء على رءوس الفتنة.

مذبحة الجمالية

كان بلدر الجمالى ، الذى يتسبب إليه حى الجمالية بالقاهرة - مملوكاً أرمنيا لوالى دمشق جمال الدين بن عمار ، ومن هنا جاء نسبه إلى سيده ، مثل غيره من المماليك الذين يباعون فى سوق الرقيق وهم فى سن الصبا ، فتقطع صلتهم بأبائهم ، وترتبط بأسيادهم ، وكان الصبى منذ نشأته ميالا إلى الجحد والاهتمام بالأمور الخطيرة والارتفاع عن صفاتها ، ويمتلك روحا توافقة إلى المجد والرفعة والترقى فى المناصب الكبيرة حتى أصبح من ذوى الشهامة وقوة العزم ، وترقى فى سلك الإدارة حتى شغل منصب والى دمشق مرتين ، إلى أن انتهى به المطاف واليا على عكا بفلسطين ، وكان بالطبع يسمع بما يجرى فى مصر من فتن وفوضى بسبب نزاعات طوائف الجند المغاربة والأتراك والسود والمرتزة ، ويترب ذلك اليوم الذى يستدعيه فيه الخليفة المستنصر إلى عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ليضبط الأمور ويقضى على مسببات الفوضى ، وصدق حدمه ، وجاءه نداء المستنصر مستنجدا ، وواعدا إيّاه بتملك البلاد والتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه ، ولا يكون لأحد - حتى الخليفة نفسه - كلمة فى شئونه . . لى بلدر الجمالى نداء سيده . . واصطحب معه جيشا من الأرمن المسيحيين ومعهم بطريقتهم ليشرف على أمورهم الدينية ، وانطلق بأسطوله من عكا إلى

دمياط وسط أجواء بحرية سيئة ورفض الانتظار حتى يتحسن الجو، ويصف المقرئى رحلة بدر الجمالى البحرية بأسلوب درامى للتدليل على قوة عزيمته، وحسن طالعها حتى أفلت من هلاك البحر، فيقول: وركب البحر من عكا وصار بمائة مركب بعد أن قيل له أن العادة لم تجر بركوب البحر فى الشتاء لهيجاته، ولخوف التلف، فأبى عليهم، وأقلع، فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوما حتى كثر التعجب من ذلك، وعد من سعادته فوصل إلى «تنيس» و«دمياط» واقتضى المال من تجارها ومياسيرها، وقام بأمر ضيافته وما يحتاج إليه من الغلال سليمان اللواتى - زعيم قبيلة «لواته» وكبير أهل بحيرة المتزلة - وصار إلى قلوب فتزل بها وأرسل إلى المستنصر يقول: لا أدخل مصر (القاهرة) حتى تقبض على «بلدكوش» زعيم الأمراء الأتراك، فقبض عليه المستنصر واعتقله بخزانة البتود بعد أن علقوه من إحدى رجله فى ركاب فرسه.

دخل بدر الجمالى القاهرة سرا، واتخذ لنفسه مقرا فى حارة برجوان بالقرب من مسجد الحاكم بأمر الله. وبدأ على الفور فى تدبير مذبحة يتخلص خلالها من زعماء الشغب والفوضى. وكان عليه أن يفكر فى حيلة يستدرج بها هؤلاء المفسدين إلى صاحة المذبحة فى وقت واحد حتى لا يفلت منهم أحد، وهو نفس ما سوف يفعله محمد على - بعد ٧٠٠ سنة - مع المماليك فى مذبحة القلعة.

العسل المسموم:

بعث بدر الجمالى مندوبين عنه إلى زعماء الجند مشحونين بالود

والتعاطف وإظهار رغبته فى التعاون معهم لإنتقاذ البلاد مما هى فيه، وبلغ الزعماء الطعم، وقابلوا الود بالود، وشرعوا فى دعوته إلى بيوتهم ليجالسهم ويناقشهم فى أفضل السبل لإقرار النظام، وهو فى حديثه إليهم يصاتعهم ويبدى لهم أنه ما جاء إلى مصر إلا شوقاً إليهم، ورغبة منه فى تحسن الأحوال، ثم هو يخادعهم ويتظاهر بالسخط على الخليفة المستنصر، ولا يذكره إلا بالسوء، حتى يترفع من نفوسهم أية ريبة فى تواطئه مع الخليفة، وهم يصدقون كلامه، وينخدعون بمعسول ألفاظه، حتى دخل فى روعهم أنه يشاركهم السخط والتمرد على نفوذ الخليفة. وفى خلال هذه المرحلة، كان جنود الأرمن الذين جاءوا مع قائدهم بدر الجمالى، يتسللون من قلوب إلى القاهرة فى شكل جماعات صغيرة حتى لا يشعر بهم قادة الفرق المتصارعة وتتكشف المهمة التى جاءوا من أجلها، فلما تكامل عددهم، ومضت مرحلة التردد والخداع بدأ «بدر» فى تنفيذ الخطة التى دبرها بإحكام.

أرسل الجمالى إلى قادة الجند يشكرهم على السهرات الجميلة التى قضوها فى ضيافتهم، والمآذب الفاخرة التى أعدوها له، وأن الوقت قد حان ليرد لهم هذا الجميل، ويدعوهم إلى قضاء ليلة فى ضيافته تدعيما لأواصر الود والمحبة، وكانت خطة المذبحة تقضى بأن يتولى كل واحد من أعوانه، أمر واحد من أمراء الترك والمغاربة والسودان، ويقتله، وله بعد ذلك أن يستولى على كل ما كان يملك القتيلى من ضياع وأموال وبيوت وجواهر. وفى الليلة الموعودة أقبل الأمراء وهم يرفلون فى ثيابهم المزركشة، واستقبلهم صاحب الدعوة بكل مظاهر البشر والترحاب، وتحلق الجميع حول مائدة فخيمة عامرة بكل أطايب

الطعام . وحرص بدر على أن تحفل المائدة بأعتق أنواع الخمر حتى تذهب الخمر برءوسهم عندما تحين لحظة الهلاك . . وقضى الأمراء معظم الليل وهم فى غاية المرح والسرور . ولا يتصورون أنهم يقضون آخر أيامهم فى هذا البلد الذى أنعم عليهم بالخير والرفاهية ، فقابلوا الإحسان بالإساءة ولم يتورعوا عن نهب أمواله وخيراته .

وبدأ تنفيذ المذبحة فى سهولة ويسر . فإذا شعر أحدهم برغبته فى قضاء حاجته ، استأذن للذهاب إلى الخلاء ، وعندئذ يجد فى انتظاره واحدا من أعوان بدر الجمالى ، فيعاجله بضربة سيف واحدة تفصل رأسه عن جسده ، وهو فى حالة من السكر تجعله عاجزا عن الدفاع عن نفسه ، ولم يفتن بقية الأمراء إلى أن الذى يذهب منهم إلى الخلاء لا يعود مرة ثانية ، فالخمر قد لعبت برءوسهم وصلبت ما فيها من إدراك ، حتى إذا أشرقت شمس اليوم التالى كانت جثث الأمراء المشاغبين قد تكدست فى باحة البيت ، أما الرءوس فقد جمعت فى جوال ، وذهب بها بدر الجمالى إلى الخليفة المستنصر ليفضى إليه بالنبا العظيم ، وهو تطهير القاهرة من زعماء الفوضى والشغب ، وعلى الفور نهض المستنصر ليوقع سجلا بتعيين بدر الجمالى وزيرا للدولة الفاطمية ، وخلع عليه بالطيلسان المقرر ، وقلده وزارة السيف والقلم ، وصار لقبه : السيد الأجل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم «بدر» المستنصرى . وتحولت نسبته من «الجمالى» إلى «المستنصرى» نسبة إلى ميله الجديد . ومع ذلك بقيت شهرته مرتبطة باسم «الجمالى» ربما لأنها أسهل فى النطق والتداول من النسبة الجديدة ،

وصار اسمه قائماً على حى «الجمالية» الذى شهد هذه الوقائع
الجسام .

وبعصر بدر الجمالى يبدأ عصر الوزراء العظام الذى يمثل المرحلة
الثانية والأخيرة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وهو العصر الذى انتقلت
فيه السلطة الفعلية إلى الوزراء ، وتحول الخلفاء الفاطميون إلى العوبة
فى أيديهم ، ولسوف تتزايد سلطات هؤلاء الوزراء حتى يتمكن
آخرهم «صلاح الدين الأيوبي» من القضاء على الدولة الفاطمية فى
مصر ، ويقوم الدولة الأيوبية التى اقتلعت مصر من براثن العقيدة
الإسماعيلية ، وعادت بها إلى النهج السنى .

تعمير البلاد وعودة الرخاء:

ونعود إلى أمير الجيوش بدر الجمالى لنرى كيف صارت أمور
البلاد على يديه منذ تلك الليلة التى استأصل فيها رءوس الفوضى .
يقول المقرئى عن تلك الليلة وما نجم عنها : فما طلع ضوء النهار حتى
استولى أصحاب (بدر) على جميع دور الأمراء ، وصارت رءوسهم
بين يديه ، فقويت شوكته ، وعظم أمره ، وصارت القضاة والدعاة
وسائر المستخدمين من تحت يده . . .

ويقول ابن تغرى بردى : وقد تحكم (بدر) فى مصر تحكم الملوك ،
ولم يبق للمستنصر معه أمر ، واستبد بالأمور فضايتها أحسن ضبط ،
وكان شديد الهيبة ، وافر الحرمة ، مخوف السطوة ، قتل من مصر
خلاتق لا يحصيتها إلا خالقها ، إلا أنه عمّر البلاد وأصلحها بعد
فسادها وخرابها بإتلاف المفسدين من أهلها ، وكانت له محاسن منها

أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين، حتى ترفهت أحوال
الفلاحين واستغنوا في أيامه، ومنها حضور التجار إلى مصر لكثرة
عدله بعد انتزاحهم منها في أيام الشدة، ومنها كثرة كرمه.

وإشارة ابن تقي بردي إلى إياحة الأرض للمزارعين ثلاث سنين
تعود إلى سنوات الشدة والمجاعة التي دامت سبع سنين قبل مقدمه إلى
مصر، حتى بارت الأرض بعد أن هرب منها الفلاحون، فعمل
الجمالى على إغراء المزارعين للعودة إلى حقولهم بأن قرر إعفاءهم من
دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات. ولا شك أن هذا الإجراء شجع
الفلاحين على ممارسة الزراعة، أضف إلى ذلك إنه اكتفى بجباية
نصف الخراج في السنة الرابعة، وعمر الريف، وأصلح الترع
والجسور، وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء، وأعاد تقسيم البلاد
إداريا إلى (٢١) عملا وقسم الأعمال إلى نواح، والنواحي إلى قرى
وكفور، كما شجع أصحاب رؤوس الأموال على الحضور إلى مصر
لاستثمار أموالهم بعد أن تزحوا عنها أيام المحنة، وأخذت القوافل
التجارية تتوافد على مصر، فانتعشت التجارة وتراجعت الأسعار وبيع
«تليس» القمح بربع دينار، وتحسنت ميزانية البلاد حتى أصبحت في
عهده ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار في سنة ٤٨٣ هـ.

الانقلاب الشيعي:

بعد أن فرغ «بدر» من مذبحة الجمالية، بعث بجنوده لمطاردة
عناصر الفتنة في الأقاليم، وذهب جنوده إلى الصعيد للقضاء على
ثورة العربان والجنود السودانيين الذين تحصنوا فيها، وهزموا «كتر الدولة»

الذى كان حاكما على أقصى الصعيد، ثم توجه بنفسه إلى الوجه البحرى فأخضع قبيلة «لواتة» الذين سبق لهم أن أمدوه بالمال حين نزوله دمياط مبحرا من عكا . . وأعاد نفوذ الخلافة إلى ما كان عليه سواء فى مركز الخلافة (مصر) أو فى الشام وقد عمل على استعادتها للنفوذ الفاطمى بعد أن استولى عليها الأتراك السلاجقة، واستولى على مدينة «صور» و«بعلبك» و«عسقلان»، وبذلك أنقذ الجمالى الدولة الفاطمية من الفناء المبكر، ومد فى عمرها قرنا كاملا من الزمان حتى لقيت مصرعها على يد النجم الأيوبي الساطع يوسف صلاح الدين .

ولعل من أهم مآثر بدر الجمالى . من حيث العمران . تلك الأبواب الثلاثة التى أقامها على السور الجديد الذى بناه حول القاهرة، وهو السور الثانى، بعد السور الأول الذى أقامه القائد جوهر الصقلى بعد أن شرع فى بناء القاهرة عام ٣٥٨هـ . وصارت المنطقة التى تقع بين سور جوهر وسور الجمالى تعرف حتى الآن باسم (بين الصورين) وتتميز الأبواب الثلاثة التى بناها بدر الجمالى على مداخل القاهرة بأنها مبنية من الحجر، الأمر الذى يشهد للرجل بالقوة والجبروت، والأبواب الثلاثة هى : «باب زويلة» الذى يقع فى نهاية شارع الغورية . وهو الباب الذى شهد مصرع آخر حكام المماليك (طومان باى) الذى شنقه السلطان السفاح سليم الأول بعد احتلاله مصر عام ١٥١٧م . والباب الثانى : هو باب النصر، والباب الثالث باب الفتوح وهما متجاوران ويلاصقان مسجد الحاكم بأمر الله ويطلان على حى الحسينية .

ست الملك

عندما جاء أمير الجيوش «بدر الجمالى» حاكم عكا القوى إلى مصر، بناء على نداء عاجل من الخليفة «المستنصر» للقضاء على الفوضى، كان «بدر» قد وضع نصب عينيه أن يدخل مصر ولا يغادرها إلى الأبد، بل يحكمها حكما وراثيا يمتد إلى أولاده وأحفاده من بعده، ولم يكن الجمالى أول المغامرين الذين وفدوا على مصر فى مهمة محدودة وإقامة مؤقتة فجعلوا منها إقامة أبدية، فأحمد بن طولون فعل ذلك، والإخشيدي فعل ذلك، وصلاح الدين الأيوبي جعل حكم مصر وراثيا فى أسرته لمدة ثمانين عاما. وسار على النمط بيبرس وقلاوون فى العصر المملوكى الأول، وكان آخر أولئك الوافدين الذين «تمصروا» واستقروا.. محمد على باشا الذى هبط مصر جنديا فى جيش العثمانيين بعد رحيل الفرنسيين، فلم يغادرها.. ظلت أسرته تحكم مصر مائة وخمسين عاما حتى أطاحت بها ثورة يوليو ١٩٥٢.

كان بدر الجمالى يعرف تحقيق هذا الهدف البعيد، فمصر فى ذلك الوقت كان يحكمها الفاطميون وفق تعاليم المذهب الإسماعيلى الذى يحصر «الإمامة» فى أسرته، ويخول للإمام سلطات زمنية وروحية

مطلقة، وهو لا يتولى الإمامة بالإختيار الحر من الناس، وإنما بالنص عليه من الإمام السابق. وتنقل الإمامة من الأب إلى الابن فى سلسلة فولاذية لا تقبل التعديل أو التغيير حتى لو كان الوريث طفلاً يحبو، كما حدث للمستنصر الذى صار إماماً يدين الناس له بالطاعة والعبودية ولم يبلغ السابعة من عمره. وكان على «بدر» أن يخترق هذه السلسلة ويضع فيها حلقة تتيح له نقل الإمامة إلى بيته.

الجمالى كان يعرف أن الوريث الشرعى للخليفة المستنصر هو ابنه «نزار»، وكان فى سن الثلاثين عندما جاء الجمالى إلى مصر، ولكن ما الذى يمنع ظهور ابن آخر للخليفة الإمام ينافس أخاه ويستلب منه الإمامة وما الذى يمنع من أن يكون الوريث الجديد من بيت الجمالى كى تثول إليه الإمامة، فيحافظ على المظهر الشكلى لنظام الوراثة، أما السلطة الفعلية فتتقل إلى بيت «الجمالية» (١٢) وبدأ «بدر» يرسم خطته فى صبر وأناة وحنكة لا يقدر عليها إلا أولو العزم من دهاقنة السياسة والمؤامرات.

كان للجمالى ابنة رائعة الحسن والجمال اسمها «ست الملك» انتقلت مع أبيها فى رحلته الأسطورية إلى مصر، وتحدث الناس بجمالها حتى وصلت أخبارها إلى مسامع الخليفة، فأبدى رغبته فى رؤيتها، وتلقف الجمالى الطلب وهو يرقص طرباً، وعرف أن الخليفة قد ابتلع الطعم، ولم يبق إلا اصطياذه فى الشبكة التى نسج خيوطها بحكمة واقتدار، فأعد فى بيته وليمة فاخرة تليق بمقام أمير المؤمنين دعا إليها النخبة من أهل بيته وبعض أعوانه الذين ساعدوه فى الترويج لجمال ست الملك عند سيدهم، ودخلت الفتاة إلى الحضرة المستنصرية

وهي ترفل في ثيابها الفخيمة وتضع على وجهها قناعاً من الحرير الشفاف . وبعد أن أدت فروض التحية وهي راكعة على الأرض ، رفعت وجهها ونزعت الغلالة الرقيقة عن وجهها الذي تبدى في عين الخليفة كالبدر في ليلة التمام . وانبهر الرجل بجمالها ، وأذن لها بالجلوس إلى جواره ، وأخذ يجاذبها الحديث فإذا بأدبها لا يقل عن جمالها ، فلم يغادر البيت حتى كان قد وضع يده في يد أبيها إعلاناً عن زواجها منه .

ست الملك قنجب،

نجمت الخطوة الأولى في المشروع الكبير الذي رسمه الجمالي ، وانتقلت ابنته ست الملك إلى القصر الكبير وصارت زوجة لأمير المؤمنين ، وبقي على الأقدار أن تسانده في خطته وتهب ابنته ولداً تنتقل الخلافة على يديه إلى بيت جده ، وكانت الأقدار مسخية على بدر الجمالي كما كانت معه طوال عمره ، منذ كان مملوكاً أرمنياً في بلاد والى دمشق . وحملت «ست الملك» وأنجبت ولداً أسماه أبوه «أحمد» وبذلك تهيأت كل الظروف أمام الجمالي ليسيّر نحو هدفه الأخير وينقل الإمامة إلى حفيده .

ولم تكن تحركات الجمالي لتخفى عن عيون «نزار» الابن الأكبر للمستنصر وورثه الشرعي ، وكان نزار في الثلاثين من عمره عندما جاء الجمالي إلى مصر ، ولكن ماذا يستطيع نزار أن يفعل إزاء هذا الوزير الجبار الذي جمع في يده كل خيوط السلطة ، وصار الحاكم الفرد الذي تضاءلت إلى جانبه سلطة الخليفة الإمام ؟ كان نزار يعلق

الأمل على زعزعة مركز الوزير مثلما حدث لكل الوزراء السابقين، ولكن سلطات الجمالي أخذت تتسع وتستفحل حتى أن الخليفة أضاف إليه مسئولية الإشراف على شئون «الدعوة» الإسماعيلية، وهو أخطر منصب ديني في النظام الفاطمي، ولا يشغله إلا فقيه كبير موضع ثقة الإمام، فهو الذي يشرف على الدعاة الذين ينشئون في أنحاء العالم الإسلامي لترويج المذهب الإسماعيلي، ويخضع لإشرافه «بيت الحكمة» وهو المؤسسة العلمية التي أقامها الحاكم بأمر الله ليتلقى فيها الدعاة أصول المذهب على أيدي الفقهاء والفلاسفة القادمين من إيران، فكان أشبه بالأكاديمية التي يتخرج فيها الدعاة، ولعل هذه المسئوليات الجسام تعطيك فكرة عن الثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها بدر الجمالي عند سيده المستنصر، فكيف لهذا الابن الحائر (نزار) أن يقف في وجه الجمالي ويعمل على إحباط خطته في إقصائه عن الخلافة؟ فلم يجد أمامه إلا أن يسعى إلى تحريك الأجندة المضادة لنفوذ الجمالي، والتي أثارها هيمنته على شئون المذهب الإسماعيلي رغم أنه أرمنى حديث الإسلام، ولا تربطه بالمذهب رابطة قديمة، وبدأ نزار يثّر رسله إلى الإسماعيليين في اليمن والهند وإيران، وتأليبهم ضد الجمالي، وفي داخل مصر اتصل نزار بوالى الإسكندرية «أفتكين» التركي حتى يكون جاهزاً للوقوف إلى جانبه إذا جدت في الأمور أمور.

بداية الحسن الصباح:

من جهة أخرى كان الجمالي يراقب تحركات «نزار» وأعدائه،

ويطلق الجواسيس لمراقبة أتباع الإسماعيلية الذين يتلقون العلم في مصر، ومنهم شاب فارسي شديد الطموح كثير الشغب اسمه «الحسن الصباح» جاء إلى مصر «حاجا» إلى الإمام المستنصر ومقابلته. وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الإسماعيلية، بل هي التأويل الباطني للحج عندهم، أما الحج الظاهر فهو زيارة بيت الله الحرام، ويقال إنه قابل المستنصر مرة واحدة وسأله: من إمامي من بعدك؟ فقال: نزار، ولذا لم يكن الحسن الصباح راضيا عن تصرفات الوزير المستبد بدر الجمالي، والخيوط التي ينسجها من أجل إقصاء نزار وتولية المستعلي، وأخذ يجهر بهذه المعارضة في محيط الإسماعيليين بالقاهرة، فلما وصلت أنباءؤه إلى مسامع الجمالي قبض عليه وسجنه، ثم نفاه إلى المغرب، ولكن السفينة التي حملته من الإسكندرية، طوحت بها الرياح إلى الشام، ومنها ذهب إلى إيران حيث أقام «دولة الخشاشين» لناوذة نظام الحكم الذي أقامه الجمالي في مصر.

قتل ابنه «الأوحد»:

كان الجمالي على استعداد لتحطيم أي رأس تقف في طريقه حتى لو كانت رأس ابنه «الأوحد» الذي جعله واليا على الإسكندرية، ولكنه شق عصا الطاعة على أبيه، فما كان من «بدر» إلا أن خف إلى هناك على رأس قواته الخاصة، وقبض على ابنه «الأوحد». وهذا اسمه وليس صفته. وقيل إنه قتله بيديه، وقيل إنه دفته حيا، قيل بل أغرقه في البحر، وقيل إنه حبسه حتى مات جوعا، وتعددت التفاسير، ولكن النهاية واحدة، وبعد موت الأوحد اتخذ بدر من ابنه الثاني «الأفضل» معاونا

وسندا، وأشركه فى تدبير الأمور، وأفضى إليه بكل سلطاته، واستصدر من الخليفة سجلا رسميا يعترف بالأفضل وليا لعهد السلطنة، وأمر المستنصر بأن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش «بدر»، وكتب إلى أتباع الإسماعيلية فى اليمن يخبرهم بأنه «أوكل إلى الأفضل بن بدر الجمالى سياسة الملك، وما يختص بظاهر السلطان وأمور الجند، على أن يتفرغ والده بدر الجمالى على درس علوم الأئمة والإشراف على الدعوة».

وبذلك صار «الأفضل» المرشح الأول لورثة أبيه فى سلطانه العريض، وفى شهر جمادى الأولى من عام ٤٨٧ هجرية انتقل الجمالى إلى الرفيق الأعلى بعد حياة حافلة بالعمل الدؤوب وقضى العشرين عامًا الأخيرة من حياته فى إدارة شئون مصر الفاطمية، مفتحا العصر الذى يعرف بعصر الوزراء العظام، أو وزراء السيف الذين جمعوا فى أيديهم كل السلطات، وتحول الخلفاء معهم إلى كائنات هزيلة. وعلى الفور انتقلت سلطات الجمالى إلى ولي عهده الأفضل وخلع عليه المستنصر نفس القاب أبيه: «السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين».

ولم يلبث المستنصر أن لحق بالرفيق الأعلى فى شهر ذى الحجة من نفس العام عن عمر يناهز سبعة وستين عاما، وبعد حكم دام أكثر من ستين سنة. وبموته خلا منصب الإمامة «الخلافة» فتحرك الأفضل على الفور، وأعلن أن الخليفة الشرعى هو ابن أخته (أحمد) الذى صار لقبه منذئذ (المستعلى بالله) وكان قد بلغ العشرين من عمره، وأقيمت مراسم التنصيب فى احتفالات رسمية وشعبية، ولم يسكت «نزار» على هذا

الانقلاب الذى أطاح به، ففر إلى الإسكندرية متحصنا بها، ولائذا بواليتها «أفتكين» التركى. وأعلن نزار نفسه إماما شرعيا للدولة الفاطمية، فلحق به الأفضل على رأس جيش لجب، ودارت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بهزيمة نزار وأعوانه، ووقعوا فى أسر الأفضل، فساقهم إلى القاهرة حيث لقوا حتفهم بعد أن بنى عليهم حائطا.

ولكن الأمور لم تهدأ أمام الأفضل وابن أخته المستعلى، وأعلنت بعض الأقطار الإسماعيلية رفضها لهذا الانقلاب الذى يتعارض مع نظام الوراثة الفاطمى، وبينما أعلن الإسماعيلية فى مصر والشام واليمن والهند اعترافهم بإمامة المستعلى، رفض إسماعيلية إيران وتمسكوا بإمامة نزار. وبذلك حدث أكبر انشقاق فى تاريخ الدعوة الفاطمية وهو الانشقاق الذى لا تزال آثاره باقية حتى اليوم، فالنزارية لا تزال قائمة فى الجماعة التى يتزعمها (أغا خان) ولها أتباع كثيرون فى إيران وشرق أفريقيا، أما المستعلية فتمثلها طائفة البهرة الذين شدهم الحنين إلى مصر بعد مرور ألف سنة، وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله ومسجد «الأمر» الذى يقع فى شارع المعز لدين الله، وهو ابن المستعلى، أما الخطر الكبير فقد جاء من فرقة الحشاشين الذين تزعمهم الحسن الصباح، وأطلقهم إلى مصر والعراق والشام لاغتيال الحكام والقادة والأمراء الذين يرفضون الانصياع لدعوته. . . وهى الفرقة التى أشاعت الفرع والرعب فى كل أنحاء العالم الإسلامى.

فرقة الحشاشين

لا يذكر اسم «الحسن الصباح» إلا مقرونا بالإرهاب وسفكه الدماء . وبقيت صفحته في سجل التاريخ ملطخة بدماء الضحايا الذين لقوا حتفهم بطعنات الخناجر وهم في عقر دارهم ، وامتناع هذا السفاح أن يجند قطيعا من الشباب دانوا له بالطاعة العمياء ، ينفذون أوامره دون تفكير أو روية لأنه كان يقوم بتخديرهم بالحشيش قبل أن ينطلقوا إلى عمليات الاغتيال ، ولذا ارتبطت كلمة «حشاش» في اللغات الأوروبية بكلمة «Assassant» أى القاتل سفاك الدماء . وقد بدأ الصباح يفكر فى تكوين هذه الفرقة الدموية بعد أن غادر مصر فراراً من نعمة الوزير بدر الجمالى ، وعاد إلى مسقط رأسه فى إيران بعد أن اجتاز سوريا والعراق وخوزستان ، وكان طوال رحلته يدعو الناس إلى الالتفاف حوله لتخليص الإمام «المستنصر» من سطوة بدر الجمالى واستبداده بشئون الدعوة الإسماعيلية وسعيه إلى تنصيب «حفيدة» «المستعلى» بدلا من أخيه «نزار» . فأمن بدعوته خلق كثير ، يمينهم بإقامة العدل ومقاومة الظلم الذى حاق بهم من سلاطين الأتراك السلاجقة .

فى أقاصى الأصقاع الإيرانية عند بحر قزوين ، استقر الحسن الصباح ، ووجد فى المناطق النائية مكانا مناسباً لإقامة دولة

للإسماعيلية ينتقل إليها الإمام «المستنصر» ويتخذها مركزاً له وللدعوة الإسماعيلية بدلاً من مصر، وشرع في وضع الخطوات التنفيذية لمشروعه الخطير، فأطلق الدعوة لجذب الجماهير المتعطشة إلى العدل، والتي ضاقت بها الحياة من طغيان السلاجقة، ونجح هؤلاء الدعوة في التسلل إلى داخل القلاع والحصون، وتمكنوا من استمالة عدد كبير من الجند فاعتنقوا الدعوة الإسماعيلية. وكان أقوى هذه القلاع قلعة «آلموت» ومعناها: عش النسر، ولها من اسمها نصيب كبير حيث ترتفع فوق قمة جبال عالية يصعب الوصول إليها إلا بشق الأنفس، ووجد الصباح أنها أنسب القلاع لتكون قاعدة لدولته المنشودة، فلما نجح دعاته في تحويل جنود القلعة إلى المذهب الإسماعيلي، أوعز إليهم أن يوجهوا إليه الدعوة لزيارتهم، وذهب الحسن إلى القلعة متنكراً متحلاً اسماً غير اسمه، ولم يعرفه أحد من أتباعه سوى الدعوة فقط، ومكث في القلعة بضعة أيام ينتقل بين حصونها ودروبها ومسالكها ويختلط بسكانها حتى عرف كل شيء عنها، وعندئذ كشف عن شخصيته، وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له، فأنصاع للأمر عندما علم أن الجنود الذين كان يعتمد عليهم، أصبحوا طوعاً وإرادة الحسن الصباح، وكانت تلك بداية الدولة الإسماعيلية في إيران.

ولم يلبث الصباح أن عمل على توسيع مملكته فاستولى على القلاع المجاورة، وأصبح الجومهاياً لدعوة الإمام المستنصر إلى دولته، ولكن جاءته الأخبار بوقاة المستنصر وتولية ابنه المستعلى، فثار الصباح وخطب باسم «نزار» وأرسل بعض أعوانه إلى مصر لإحضار نزار،

فوجدوا أن الوزير «الأفضل» قد قتله، ولكنهم استطاعوا أن يصحبوا معهم ابنا لتزار إلى الموت، فأخفاه الحسن حتى تأتي الفرصة المناسبة لإظهاره، ويقتل نزار أصبح الحسن الصباح صاحب الأمر في الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وهي الدعوة «النزارية» وصار هو العقل المدبر واليد الفاعلة لجميع الحوادث التي كانت تجري في العالم الإسلامي في ذلك العصر.

جنة الصباح الأسطورية،

وشخصية الحسن الصباح من الشخصيات التي نسجت حولها الأساطير، واختلفت بشأنها أقوال المؤرخين، فقليل إنه أمر بأن تزرع السفوح الجبلية التي تعلوها قلعة الموت، فكان منظر الجبل بعد إن كسسته الخضرة وأينعت فيه الزهور سببا في تلك القصة التي رواها الرحالة البندقي «ماركو بولو» في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد ذهب إلى أن الحسن الصباح أنشأ في واد يقع بين جبلين حديقة فيحاء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور والرياحين وأشجار الفاكهة من كل صنف، وجعل فيها مقصورات ذات قباب بديعة الشكل، وزخرفها بنقوش ذهبية، وأجرى في الحديقة أنهاراً من خمر، وأخرى من عسل، وثالثة من لبن، وأطلق فيها الحور العين من الفتيات الإيرانيات، والعلمان، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص، ثم يسمح لأتباعه من القدائين بالتجول في هذه الحديقة وإقناعهم بأنها الجنة التي وعد الله بها المتقين، وأن باستطاعة زعيمهم أن يدخل جنته هذه من يشاء، ويحرم منها من يشاء، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها

إلا طبقة الفدائيين حتى يستلب عقولهم ، ويجعلهم أداة طيعة تنفذ ما يصدر إليهم من تعليمات حتى لو كان فيها الموت لهم .

هذه القصة عن جنة الحسن الصباح كانت ماثرا لأحداث كثيرة ألهمت كتاب القصص ، ولكن الدكتور محمد كامل حسين ، وهو واحد من قلائل العلماء المصريين المتخصصين في الفكر الإسماعيلي ، يرفض هذه القصة الخرافية ، ويرى أن السبب في ترويجها هو نظام (الفدائيين) الذي أوجده الحسن الصباح لأول مرة في التاريخ . ويرى الدكتور كامل حسين أن الحسن الصباح اقتبس هذا النظام من مصر عندما جاء إليها للدراسة الدعوة الإسماعيلية ، فقد شاهد في القصر الفاطمي الصغير عدة حجرات كان يقيم فيها شبان أحداث السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية ، جمعهم الخليفة المستنصر في قصره ليربيهم تربية خاصة حتى يصطنعهم في حكم دولته بعد أن يبلغوا سن الرجال ، وكان هؤلاء الشبان يتعلمون فنون السياسة والدعاية والفروسية في القصر الفاطمي على أيدي أخصائيين مهرة في هذه الفنون وتحت إشراف الإمام نفسه ، وقد أعجب الحسن الصباح بهذا النظام في تربية جيل من الناشئة ، وعرف بذكائه ودهائه كيف يقتبس نفس نظامهم في تدريب الشباب على أعمال تحقق أهدافه ، ويستعين بهم في القضاء على أعدائه ، فلما تم له امتلاك قلعة الموت ، جمع إليه طائفة من الأطفال أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للإسماعيلية ، واستعدادهم للتضحية في سبيل مذهبهم ، وأخذ في تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء ، والإيمان بكل ما يقوله لهم ، ثم بث فيهم حب التضحية بالروح في سبيل العقيدة

والإمام، ولما اشتد ساعدتهم أخذ يدرّبهم على استعمال الأسلحة المعروفة في تلك الأيام ولا سيما الخناجر، أضف إلى ذلك أنه كان يعلمهم كيف يخفون أمر أنفسهم وأمر من معهم بحيث لا يبوح أحدهم بسرّه أو سر الجماعة التي ينتمى إليها، فإذا وقع في أيدي الأعداء لا يبوح بكلمة واحدة، بل يقتل نفسه ويموت معه سرّه، وكان الصبح صارما في تنشئة هؤلاء الغلمان، قاسياً عليهم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح في إعداد طائفة من الإرهابيين أفزعوا العالم الإسلامي كله.

إدمان الحشيش:

وقد أطلق المؤرخون على هذه الفرقة عدة أسماء منها «الحشاشين»، وقالوا إن السبب في هذا الاسم أن الحسن الصباح كان يخدر الفدائيين بمادة «الحشيش» وأنه عودهم على تعاطي هذه المادة حتى أدمنوها وصاروا لا يستطيعون العيش بدونها، فكان يطلب منهم القيام بأعمال الاغتيال نظير حصولهم على الحشيش واستمتاعهم بالدخول في جنته، ولكن الدكتور محمد كامل حسين يرفض هذه الدعاوى ويرى أنها من صنع أعداء الإسماعيلية، وحيثه في ذلك أن الحشيش يزرع الجبن في نفس متعاطيه فلا يستطيع القيام بالأعمال الخطيرة التي كان يقوم بها الفدائي، مثل قتل الأعداء أو قتل نفسه إذا فشل في مهمته، وأن الحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل وتجعل المدمن يهذى ويبوح بأسرار يجب أن يكتتمها، بينما الإرهابي الإسماعيلي كان يمتاز بالقطنة والكياسة والدقة التامة في كل تصرفاته

وتقدير موقفه تقديرا يحقق له النجاح مع شدة الحرص على الكتمان، وهذا كله لا يتفق مع إدمان الحشيش .

اغتيال نظام الملك:

وإذا كان الكتاب والمؤرخون المحدثون لم يصدقوا قصة الحشيش كما لم يصدقوا قصة الجنة، إلا أنهم كتبوا الفصول الطويلة عن أعمال الاغتيال التي قام بها الفدائيون أتباع الصباح ضد خصومهم في مصر والعراق، فكانوا يغتالون كل من تحدته نفسه بعدائهم، ولا سيما الملوك والوزراء والأمراء، وكان أشهر من اغتالوه الوزير السلجوقي الكبير «نظام الملك» الذي جمعته فصول الدراسة بينه وبين الحسن بن الصباح، وكان ثالثهما الشاعر العالم عمر الخيام، وقيل إن الثلاثة اتفقوا وهم في صدر الشباب على أن يساعد كل منهم صاحبيه إذا شغل منصباً مرموقاً. فلما تولى نظام الملك الوزارة للسلطان السلجوقي «ملكشاه». استدعى صديقه الحسن الصباح وعهد إليه بوظيفة مرموقة في ديوان الإنشاء، ولكن الصباح دأب على إثارة الشغب وتأليب زملائه ضد الدولة، فأبعده نظام الملك وأضمر الصباح الشر لصاحبه فكان على رأس قائمة الاغتيالات. وتوالت ضربات الفدائيين للأمراء السلاجقة ورجال دولتهم حتى شاع الذعر أرجاء العراق، وكثر الحديث عن جرائمهم وتحول الفدائيون إلى قتلة مأجورين، فكان الأمير السلجوقي يستأجرهم للقضاء على خصومه، وفشلت كل جهود الدولة السلجوقية للقضاء عليهم بسبب مناعة مواقعهم، فكانت الجيوش التي تذهب لمحاربتهم تعود مهزومة، حتى

اضطر السلطان «سنجر» إلى مهادنتهم وبعث إليهم وفداً للتفاوض والمصالحة، وذلك بعد أن استيقظ من نومه يوماً فوجد خنجراً مغروساً في وسادته. والخنجر هو الرمز الإرهابي لفرقة الحشاشين.

وعندما عاد وفد المفاوضة السلجوقي إلى سيدهم، أخذ كل منهم يروي بعض ما أذهله عن سطوة الحسن الصباح على أتباعه، من ذلك أنه أمر أحد أتباعه أن يغمد خنجراً في صدره ليقتل نفسه، فامتثل للأمر دون تردد وأنه طلب من فدائي أن يلقي بنفسه من نافذة الحصن إلى الهاوية، ففعل ما أمر به في الحال، وهوى إلى القاع وتناثرت أشلائه، ولم يكد السلطان يسمع هذه الحكايات حتى دب الرعب في قلبه وبادر إلى مصالحة الصباح بعد ثلاثين عاماً من الحرب اليائسة.

ولم يغفل الحسن الصباح عن الانتقام من الخلفاء الفاطميين في مصر، فبعث بعض أتباعه فقتلوا الخليفة (الأمر) بن المستعلى، ومعه العديد من الشخصيات البارزة، مما أدى إلى زعزعة الحكم الفاطمي في مصر والذي انتهى بسقوط الدولة الفاطمية على يد البطل صلاح الدين الأيوبي.

وجه آخر للحسن الصباح؛

وللحسن الصباح وجه آخر يناقض صورته الإرهابية الملتطخة بالدماء، فقد كان مشهوداً له بالزهد والتقشف والانقطاع للعبادة. يقول الدكتور محمد كامل حسين إن الحسن الصباح عاش متصوفاً زاهداً متعبداً، فكان مثالا للرجل المنصرف إلى العبادة مع ما كان عليه

من تعطش إلى سفك الدماء وقتل كل من يخالفه ، وامتدت به الحياة إلى سن التسعين وكلها ملوثة بالدماء حتى بلغت به شراسته لسفك الدماء مبلغاً كبيراً لدرجة أنه قتل ولديه وادعى أمام أتباعه أنه قتلها غيرة على الدين والعقيدة، وزعم أنه قتل ابنه الأكبر لأنه اشترك مع آخرين في قتل شيخ من مشايخ البلاد للجاورة، وقتل ابنه الثاني لأنه شرب الخمر، وتوفي الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن جاوز التسعين، صرف منها سبعين عاماً في تأسيس دولته الإسماعيلية التي طبعها بالطابع الدموي الذي جعل لها هذه الشهرة الكبيرة في الشرق والغرب، ولم تتحطم هذه الدولة الإرهابية إلا على يد سفاح آخر لا يقل إجراماً عن زعيم دولة الحشاشين، وأعنى به السفاح المغولي «هولاكو» أثناء حملته على إيران سنة ٦٥١ هـ، فاستولى على جميع قلاع وحصون الإسماعيلية وكانت تبلغ الأربعين حصناً، دكت كلها إلى الأرض بعد أن هرب منها سكانها تاركين كنوزهم نهباً للمغول، ثم أخذ المغول بعد ذلك في تتبع الإسماعيلية فكانوا يقتلون كل إسماعيلي يقابلونه، وبذلك انتهت أسطورة دولة الحشاشين التي لم تخلف في صفحات التاريخ سوى الرعب والفرع والذكريات السوداء.

الخليفة فى المقطف

بعد وفاة الخليفة الفاطمى «المستنصر» عام ٤٨٧ هـ تعرضت الحركة الإسماعيلية إلى سلسلة من الانشقاقات وتحولت إلى عدد من الفرق والجماعات لا تزال موجودة حتى الآن، وأشهرها فى عصرنا الحالى فرقة «الأغاخانية» التى بدأت من إيران ثم الهند، ويتزعمها «أغاخان»، وهم يؤمنون بإمامة «نزار» ابن المستنصر الذى أطاح به انقلاب القصر حيث حل محله أخوه «المستعلى» بتدبير من جده بدر الجمالى وخاله الوزير الأفضل، وإذا كان أتباع المستعلى قد انقرضوا من مصر مع زوال الدولة الفاطمية عام ٥٦٧ هـ على يد البطل صلاح الدين الأيوبي، إلا أن بقاياهم لا تزال ماثلة فى طائفة «البهرة» الذين عادوا إلى مصر منذ ريع قرن وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله ومسجد الأقمر وصنعوا مقصورة من الذهب لضريح الإمام الحسين وأخرى من الفضة للسيدة زينب، وتراهم متشرين فى شارع المعز لدين الله فى سراويلهم البيضاء يمارسون تجارة المعدات الكهربائية وأدوات البناء وهى أحب أنواع التجارة إليهم، وبالمناسبة: فإن كلمة «البهرة» بضم الباء هندية قديمة تعنى التاجر، ويشتهرون بالشراء العريض.

وقد أخذ الهنود مذهب «المستعلية» من اليمن وليس من مصر، وظلت المستعلية تحكم اليمن قرونا طويلة بعد زوالها من مصر ثم تسربت إلى الهند عن طريق خطوط التجارة الملاحية التي كانت متعشة بين اليمن وسواحل الهند المطلة على بحر العرب، أما كيف انتشرت الدعوة الفاطمية في اليمن فتلك قصة قديمة تعود إلى نشأة الدعوة في المغرب على أكتاف عدد من الدعاة اليمنيين أشهرهم أبو عبد الله الشيعي الذي أقام دعائم الفاطمية في إفريقية (تونس) ومهد لظهور عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين. وفي عهد الخليفة الرابع - المعز لدين الله - انتقلت إلى مصر وتوسعت رقعتها وبسطت نفوذها على الشام واليمن وصارت ندا للدولة العباسية. وقامت في اليمن حكومات محلية تدين بالولاء للخليفة الفاطمي في مصر، وتدعوه على المنابر، وتعتنق المذهب الإسماعيلي وأشهر هذه الأسر اليمنية الحاكمة: الأسرة الصليحية بزعامه «علي الصليحي» الذي قدم إلى مصر وأعلن ولاءه للخليفة المستنصر فأعطاه تفويضاً بحكم اليمن وأغدق عليه فجموعة من ألقاب الشرف منها «الأمير الأجل مشرق المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين» ومنها «منتخب الدولة وصفوتها ذو المجدين، منجب الدولة وغرسها ذو السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضلين».

وعاش علي الصليحي يعمل على تدعيم الدولة الفاطمية في اليمن، حتى اغتيل وخلفه ابنه أحمد الصليحي فسار سيرة أبيه في الولاء للدعوة الإسماعيلية، وأغدق عليه المستنصر نفس الألقاب التي منحها لأبيه وخلع عليه لقب «المكرم» ولكن الصعاب أحاطت به

بسبب تمرد بعض القبائل اليمنية التي لم تألف الخضوع لسلطة حكومة مركزية ، وكان الخليفة المستنصر يتابع باهتمام ما يجرى فى اليمن ويساند «المكرم» فى حروبه ضد المتمردين حتى انتصر عليهم وأعاد الأمن إلى البلاد . فلما مات تولت الحكم زوجته الملكة الحرة «أروى» ولكنها قوبلت بعاصفة عنيفة من جانب أحد الدعاة الفاطميين واسمه «سبأ» الذى عرض عليها الزواج ولكنها رفضت ، فلجأ سبأ إلى الخليفة المستنصر بوسطه فى هذا الزواج الذى سيحقن الدماء ، فكتب الخليفة إلى السيدة أروى رسالة يأمرها بالزواج من سبأ ويقول فيها : «وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الراعى الأواحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبى حمير «سبأ» بن أحمد ، على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عينا ، وخمسون ألفا أصنافا من تحف والطف» . ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تمتثل لأمر الخليفة الفاطمى وتزوج بمن تكرهه .

الإمام فى مقتطف:

وظلت الملكة الحرة «أروى» على ولائها للمستنصر حتى وثق بها كل الثقة وعهد إليها تنظيم الدعوة الإسماعيلية فى عمان والهند ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة فى هذه البلاد ، وهذا هو سبب انتشار الدعوة الإسماعيلية فى الهند ، فلما مات المستنصر علمت نبأ إمامة «المستعلى» بادرت بالاعتراف به ، ورفضت التمرد عليه مثلما فعل الحسن الصباح .

وبقيت الملكة الحرة على ولائها للمستعلى ومن بعده ابنه «الأمر» .
ثم جدّت أمور خطيرة وضعت الدعوة الفاطمية فى مهبط العواصف
حتى ضعف شأنها، وانقرط عقدها، وكان الخليفة «الأمر» هذا من
أفسد عباد الله . وكان يهيم غراما بفتاة بدوية أقام لها عشا خاصا فى
جزيرة الروضة وكان يتسلل إليها تحت جناح الليل ، وفى إحدى هذه
الجولات هجم عليه رسل الحشاشين وقتلوه دون أن يخلف وريثا .
فقفز إلى الخلافة عمه عبد المجيد ولقب نفسه «الحافظ» ، ولكن الملكة
الحرة «أروى» لم تعترف بإمامته تمسكا بالأحكام الشيعية التى تقصر
الإمامة على الأعقاب ، ولا تسمح بانتقالها إلى الأشقاء أو الأعمام ،
وهنا حدث الانشقاق الثانى فى الدعوة الإسماعيلية ، عندئذ لجأ دعاة
الإسماعيلية إلى طريقتهم فى صنع القصص التى تخدم أغراضهم ،
فزعموا أن إحدى زوجات الخليفة المقتول «الأمر» كانت حاملا ثم أنها
وضعت ولداً ذكراً اسمه «الطيب» . وأن أحد الدعاة خاف عليه من
أعدائه فاحتفظ به وأخفاه ثم أرسله فى «مقطف» إلى الملكة أروى فى
اليمن ، فتولت تربيته ، وظلت تحكم اليمن باسمه وتتب عنه فى إدارة
شئون الدعوة الإسماعيلية ، واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام
المستور الطيب بن الأمر) ، وبذلك انشقت الفرقة «الطيبية» عن الفرقة
«المستعلية» التى استمرت فى مصر تحت إمامة «الحافظ» . ودخلت
الدعوة فى اليمن طور الغموض حتى لم يعرف المؤرخون أسماء
الأئمة من بعد هذا الطيب ، وإن كان دعاة هذا المذهب يصطنعون
سلسلة من الأئمة ليس لهم وجود حقيقى وهذا ما يراه الدكتور محمد
كامل حسين الذى يقول :

وفى اعتقادي أن قصة «الطيب» هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخي، فإن أحدا من المؤرخين لم يذكر وجود «الطيب» بن الأمر إلا ما نراه في كتب الدعاة، أما ما يقال عن وجود سجل وجهه الأمر إلى الملكة الحرة قبل مقتله، في إنه في رأى سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليبيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة «الطيب» والصليبيون في اليمن هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، بينما سكّت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه في كتبهم، بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة «الأمر» التي كانت حاملا عند موته وضعت أنثى، ولكن الصليبيين قالوا بل وضعت ذكراً هو «الطيب» ويتساءل الدكتور محمد كامل حسين، ومعه الحق، عن سبب ستره مع أن الدولة كانت دولة الصليبيين، والسلطان في أيديهم، فلماذا قبلوا أن يدخلوا إمامهم السر وأن يخفوه ماداموا يدعون له ويدينون بطاعته وإمامته (!!) وإنما يخيل إلى أن الصليبيين وضعوا قصة «الأمر» هذه، حتى يتخذوها ذريعة للاتصال عن سلطان الفاطميين الديني، وأن يستقلوا بالنفوذ الديني والسياسي معاً، وأوحى دهاء الملكة «أروى» وذكائها الشديد وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحبته الكبرى، وسار على نهجه كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن.

انقسام جديد:

وبعد انقراض الدولة الصليبية سنة ٥١١هـ، خمد أتباع الدعوة

الطبيية عن القيام بأى نشاط سياسى، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا فى محيطهم الخاص، واتخذوا التقية ستاراً فلا يظهرون إسماعيليتهم، وقد هيات التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة نشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية فى الهند، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفت الدعوة بينهم باسم «البهرة» وفى القرن العاشر الهجرى. أى منذ ٤٠٠ سنة حدث انشقاق جديد فى صفوف الطيبية وانقسمت إلى فرقتين: البهرة الداوودية، والبهرة السليمانية، ويرجع هذا الانقسام إلى الخلاف على من يتولى مرتبة الداعى المطلق للطائفة: فالتفت الداوودية حول الداعى قطب شاه داوود، واجتمعت الثانية حول الداعى سليمان بن حسن. وانتقل مركز الداوودية من اليمن إلى الهند ومقره بومباى، ويتمتع داعيها وزعيمها بنفس الصفات التى كان يتمتع بها الأئمة، وله سلطات روحية مطلقة على أتباعه. وهى نفس سلطة الأئمة فى العصور الوسطى. ونستطيع أن ندرك مدى هذه السلطة الروحية للداعى المطلق إذا عرفنا أن طائفة البهرة بفرعها متعصبون أشد التعصب لمذهبهم وعقيدتهم، ومن ثم حافظوا على تقاليدهم التى ورثوها منذ عهد الصليحيين محافظة تامة، ولا يقبلون تبديلاً لتلك التقاليد أو تطويرها مع تطور الزمن، حتى أنك تعرف فى سهولة رجل البهرة من ملابسه ومن لحيته، وتميز المرأة من البهرة فى الطريق من (الخبرة) التى ترتديها والنقاب الكثيف الذى تخفى به وجهها.

الظاهر والباطن،

أما عن عباداتهم فإنهم يتخذون أماكن خاصة لهم للعبادة لا يدخلها غيرهم وأطلقوا عليها اسم «جامع خانة» فهم لا يؤدون فريضة الصلاة في المساجد مع غيرهم من المسلمين، وذلك إمعانا منهم في ستر عقائدهم المذهبية، والحرص الشديد على إخفائها عن الناس، مع أنهم - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - شديداً التمسك بفرائض الدين وأركانه وأن عقيدتهم في «الظاهر» لا تختلف عن عقائد غيرهم من المسلمين، أما عقيدتهم في «الباطن» فهي بعيدة كل البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة، فهم مثلاً يؤدون الصلاة كما يؤديها المسلمون، ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماماً، ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام الإسماعيلي المستور من نسل «الطيب» بن الأمر. ويذهبون إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج في موسمهم شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين، ولكنهم يقولون إن الكعبة التي يطوف حولها الحجاج هي رمز على «الإمام» ولا ينكر الدكتور كامل حسين فضل طائفة البهرة في محافظتها على التقاليد الإسماعيلية، إذ استطاع دعائها أن يحتفظوا بشطر كبير من المؤلفات الدينية والأدبية التي وضعها علماء ودعاة المذهب في مصر في العصر الفاطمي، بينما ضاعت هذه الكتب من مصر نفسها، وكذلك حافظوا على الكتب التي وضعها دعاة فارس واليمن في العصر الفاطمي، فلو لا احتفاظ دعاة البهرة بهذه الكتب الفاطمية لما عرفنا شيئاً عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية إلا عن طريق كتب أعداء الإسماعيلية، ولكن مما يؤسف له حقاً أن محافظتهم على التقاليد والقول بستر

عقيدتهم أدى بهم إلى عدم السماح لأحد الوصول إلى الكتب التي
يقدسونها حتى أنهم غالوا في ستر هذه الكتب، فلم يكن الدعاة
أنفسهم يسمحون لأبناء الطائفة بالاطلاع على هذه الكتب، ومع ذلك
تسرب بعضها إلى مكتبات مصر وأوروبا وأمريكا، وقام بعض
الباحثين بنشر هذه المخطوطات ومن هنا تيسر للناس الوقوف على
أسرار عقيدتهم ومن أهمها أنهم يؤمنون بالباطن (وهو العبادة
العلمية) ولكن يقولون بالظاهر أيضاً (وهو العبادة العملية وتشمل
فرائض الدين) وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معاً، بل كفروا من
أعتقد بالباطن دون الظاهر أو بالظاهر دون الباطن، وجاءت نظمهم
السياسية تعبيراً عن هذا الازدواج المائل في كل شأن من شئون حياتهم
العملية والعقيدية، وهم يتفقون مع غيرهم من الفرق الشعبية في
أصول المذهب كالاعتقاد في عصمة الأئمة، والتقية وإن اختلفوا عنهم
في أمور كثيرة جعلت منهم طائفة مستقلة في أفكارها وعقائدها.

شاوور وضرغام صراع الديوك

عندما مالت شمس الدولة الفاطمية نحو الغروب، ودخلت آخر أطوار الضعف والانهيار، وقعت البلاد تحت سيطرة وزيرين من أحقر ما عرفت الفاطمية من وزراء السيوف الذين صارت لهم الكلمة العليا حتى أنهم كانوا يختارون الخلفاء من بين أطفال الأسرة المالكة لكي لا يكون لهم حول ولا طول. كان أحد الوزيرين العابثين يستعين على غريمه بجيش الصليبيين، فيبادر الآخر باستدعاء قوات السلطان «نور الدين» حاكم الشام القوي باذلا له الأموال مقابل إعادته إلى كرسي الوزارة، ثم يتصل من عهوده فلا يجد حرجا من الاستعانة بالجيش الصليبي الذي كان بالأمس يستعديه، وظلت قوات الفريقين تتردد على مصر حتى أصبحت البلاد مسرحا للفوضى والعبث، وانتهت اللعبة الدنيئة بوقوع مصر لقمة طرية في يد البطل الشاب صلاح الدين الأيوبي. فلم يكتف بقطع دابر الوزيرين بل قضى على الدولة الفاطمية كلها بضرية قاتلة، وأعاد مصر إلى التيار السني بعد قرنين من حكم الإسماعيليين الشيعة.

أما أخطر الوزيرين فهو: شاوور بن مجير السعدي، ويسمى إلى

قبائل البدو المصريين ، وكان يزعم أن نسبه - السعدى - انتهى إلى السيدة حليلة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، وهو أول وزير عربى يغتصب الوزارة فى سلسلة وزراء السيوف بدءاً من بدر الجمالى ، الذى فتح الباب أمام بنى جنسه (الأرمن) ليشغلوا هذا المنصب الخطير ، وقد ترقى «شاور» فى مناصب الدولة حتى عين والياً على الصعيد الأعلى ، واستطاع خلال سنوات ولايته على الصعيد أن يجند جيشاً من البدو ليكونوا عوناً له فى معركة الصراع على السلطة ، ولما وجد شاور أن الوقت قد حان للانتفاض على السلطة ، تحرك بقوته من الصعيد عن طريق الواحات . ثم دخل القاهرة فى الثامن والعشرين من المحرم عام ٥٥٨ هـ وأطاح بالوزير «العادل رزىك بن طلائع» وهو أرمنى ، وجلس على عرش الوزارة فى دار الذهب الكائنة على شط الخليج ، وقبض على «رزىك» وأودعه السجن ثم بعث إليه ابنه «طى» فقتله .

حدثت كل هذه التغيرات الهائلة دون إذن أو مرسوم أو حتى علم من الخليفة «العاظم» الذى كان قابلاً فى قصره بحمد الله على نعمة البقاء حياً بمعزل عن صليل السيوف . وبدأ «شاور» عهده بمصادرة أملاك الوزير السابق وكل من يلوذ به ، ويضمها إلى ممتلكاته الخاصة . . ولكنه لم يهنا طويلاً بهذا الملك العريض . . فقد برز له من صفوف الطامعين غريمه اللدود : أبو الأشبال «ضرغام» بن عامر بن سوار اللخمى ، وكان «ضرغام» من أمراء الدولة وكبار قوادها ، ويتزعم فرقة من الأمراء يقال لهم «البرقية» واستعظم «ضرغام» أن يفعل «شاور» فعلته ويستولى على السلطة دونه ، فتحرك بقواته نحو القاهرة ، وما أن علم «شاور» بقرب وصول قوات ضرغام إلى

القاهرة، حتى ولى الأدبار . . وفر إلى الشام مستنجداً بحاكمها القوى «نور الدين محمود» الذي كان مهموماً بالاحتلال الصليبي . ويتحين اليوم الذي يحرر فيه بيت المقدس من دنسهم، ويعمل جاهداً على توحيد الشام ومصر في جبهة واحدة تتمكن من مواجهة الفرنجة وطردهم . وكانت هناك مكاتبات سابقة بين نور الدين، والوزير المصري السابق طلائع بن رزيك لتوحيد جهودهما، ولكن لم تكتمل بسبب وفاة «طلائع» . فلما ذهب «شاور» إلى نور الدين مستنجداً وجدها فرصة ذهبية لتطويق الإمارات الصليبية بقوات مصر والشام

سباق - إلى مصر

ولكن ما أبعد الشقة بين مقاصد الرجلين . .

كان نور الدين يهدف إلى تدعيم الجبهة الجنوبية (مصر) بقوات من الشام . . أما «شاور» فكان مقصده عوناً عسكرياً يعيده إلى السلطة ويثبته على العرش الذي سلبه منه ضرغام . . على أن يتعهد بدفع نفقات الحملة وثلث دخل مصر سنوياً، ويتصرف كوكيل لنور الدين .

على أية حال . . تحركت القوات الشامية إلى مصر بصحبة شاور . . وعندئذ سارع ضرغام بالاتصال بملك بيت المقدس «عموري» مستنجداً به مع تعهد بتنفيذ كل طلباته المالية وعدم النكوص عن تعهداته السابقة .

وكان هناك اتفاق سابق تعهد فيه الوزراء الفاطميون بأن يدفعوا إلى «عموري» جزية سنوية مقابل امتناعهم عن غزو مصر، ولكن عندما

تولى «ضرغام» السلطة بعد طرد «شاور» امتنع عن دفع الجزية، فتحرك عمورى بقواته الصليبية إلى مصر، فما كان من «ضرغام» إلا أن فتح سدود النيل وقت الفيضان، وأغرق البلاد لإعاقة تقدم القوات الصليبية، واضطر «عمورى» للعودة إلى بيت المقدس وهو يتميز غيظاً من «ضرغام» لامتناعه عن دفع الجزية. . فلما وجد ضرغام أن غريمه «شاور» قد لجأ إلى نور الدين وأن جيشه على وشك الوصول إلى مصر، لم يجد حرجاً في استرضاء عمورى. . والتعهد بتنفيذ الاتفاق السابق فى مقابل حضور جيش صليبي لنصرته ضد شاور.

وصل جيش نور الدين بقيادة الضابط الكردي أسد الدين شيركوه إلى مصر فأطاح بضرغام بعد تسعة شهور فقط من جلوسه فى السلطة، وعاد «شاور» إلى مركزه، ولكنه سرعان ما تنكر لحليفه ونقض اتفاقه معه، بل طلب منه مغادرة البلاد، ولكن «شيركوه» أصر على تنفيذ ما اتفق عليه، وتمركز بقواته فى بليس فى انتظار تعليمات من سيده نور الدين .

بعد أن وصلت الأمور إلى الطريق المسدود. . ماذا يفعل شاور؟ لجأ إلى الصليبيين مستنجداً بهم لإخراج قوات نور الدين من مصر، وحرصهم على سرعة القدوم قبل وصول نجذات من الشام. وتلقف الصليبيون استغاثة شاور بمتهى السعادة والخبور وسارعوا إلى تلبية طلبه خشية وقوع مصر فى يد نور الدين فيكون فى ذلك القضاء عليهم، وبلغ من لهفتهم أنهم لم يعبأوا بتهديد نور الدين لبلادهم ليمنعهم عن المسير، وتوحدت قوات الصليبيين مع قوات شاور فى محاصرة قوات «شيركوه» فى بليس، واستمر الحصار ثلاثة أشهر

حتى اضطروا إلى فك الحصار والعودة إلى فلسطين عندما علموا باستيلاء قوات نور الدين على بعض المدن السورية التي كانت في حوزتهم . واتفقوا مع شيركوه على جلاء قوات الفريقين عن مصر .

على أسنة رماح العدو:

عادت القوات الشامية والصليبية إلى قواعدها وعيونهم مركزة على مصر بعد أن تبين لهم ما تعانيه من ضعف نتيجة تنافس وزرائها في الوصول إلى الحكم ولو على أسنة رماح الأعداء .

يقول أبو شامة في (عيون الروضتين) : وشاهد أسد الدين البلاد، وعرف حالها وعرف أنها بلاد بغير رجال، ثمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال . فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدثاً بذلك نفسه، مقدراً لقواعد ذلك مع نور الدين، وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائه عاد أسد الدين شيركوه إلى مصر، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء وابن أخيه «صلاح الدين»، وهذه هي المرة الثانية، وكان أسد الدين قد اشتد طمعه في البلاد لما دخلها وكشفها، فكان أبداً يتحدث بالعزم على العود إليها، وبلغ ذلك شاور، فقرر مع الفرنج العود إليه ليساعدوه، فوصلوا بعد أن وصلها أسد الدين، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً، وسار نحو الصعيد بعسكره، وصارت العساكر المصرية (قوات شاور) والفرنج وراءهم فثبتوا لهم، فوقعت الواقعة بموضع يعرف بالباين فانهزم المصريون والفرنج، وهذه الواقعة من عجيب ما يؤرخ، وذلك؛ أن ألفى فارس بعيلة عن بلادها، هزمت

عساكر مصر فى بلادها، وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى الإسكندرية وجبى ما فى طريقها من القرايا والسواد من الأموال، وسلم الإسكندرية أهلها إليه، فاستتاب بها «صلاح الدين»، وعاد هو إلى الصعيد وتملكه، وجبى خراجها وأمواله، وأقام به حتى صام شهر رمضان، ثم تجمع الفرنج والمصريون، وحاصروا الإسكندرية، فسار أسد الدين نحوهم، فجاءته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذوه من البلاد، فأجابهم، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وعاد إلى الشام، وأنفذ «الكامل» بن شاور مالا جزيلا إلى نور الدين، وسأله إصلاح الحال وجمع كلمة الإسلام، وبذل مالا يحمله كل سنة، فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها.

نصر الإسلام .. فقط:

حاول شيركوه أثناء وجوده بمصر التحالف مع «شاور» ضد الصليبيين الموجودين فى مصر والانقضاء عليهم، وبذلك يسهل على المسلمين القضاء نهائيا على القوى الصليبية فى فلسطين والشام، وذكر أسد الدين فى رسالته إلى شاور «وما أومل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد، والتجدة بعيدة عنه، وأريد أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت، والغنيمة التى قد كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد نائثرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدا».

ولكن شاور الذى لم يكن يعنيه سوى منصب الوزارة فقط، كان

يخشى كما يقول الدكتور حمدى المناوى من أسد الدين أكثر من خشيته من الفرنج، فلم يستجب لدعوته، بل أمر بقتل رسوله. رغم حصانة الرسل. وأطلع «عمورى» على عرض شيركوه وبذلك أضاع شاور بغيائه وأنانيته تلك الفرصة التى لا تعوض.

وتتكلم المصادر الإفرنجية المعاصرة للصليبيين عن سفارة بعث بها الملك عمورى إلى الخليفة العاضد ووزيره شاور لعقد اتفاقية يتعهد فيها الصليبيون بحماية مصر من تهديدات نور الدين، مقابل أن تدفع له مصر ٢٠٠ ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة، إلا أن المؤرخ الأيوبنى «ابن واصل» يذكر أن الكامل بن شاور تأذى من هذا العرض وبعث إلى نور الدين يعلن ولاءه ومحبته والدخول فى طاعته، واستعداداه لأن يجمع بمصر الكلمة على طاعته، وبذل له مالا يحمله كل سنة..

كان الابن يعلو فى تفكيره إلى مستوى المحنة التى تتعرض لها مصر والشام جانب الصليبيين، بينما الأب الغادر يتواطأ مع الإفرنج، وبالفعل اعتزم الصليبيون العودة إلى غزو مصر، ويذكر ابن واصل أن الفرقة الصليبية التى تركوها على أبواب القاهرة عاملوا المصريين معاملة سيئة، وأرسلوا إلى عمورى يغرونه بفتح مصر لما تبين لهم من ضعفها، كما بعث بعض الأمراء المصريين المعادين لشاور يستحثون عمورى على القدوم لمصر، واستجاب «عمورى» للطلب. فجاء على رأس جيشه واحتل بلبيس ثم حاصر القاهرة. ولكى يعوق شاور تقدم الصليبيين نحو القسطنطينية أمر بإخلاء القسطنطينية وحرقها. ويقول المقرئى: بعث شاور إلى مصر (القسطنطينية) بعشرين ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء،

فصار منظرًا مهولاً ، واستمرت النار تأتى على مساكن مصر لتمام أربعة وخمسين يوماً ، ومن ثم تحولت القسطنطينية إلى الأطلال المعروفة الآن بكيهان مصر . . فلما حدث الحريق رحل «عمورى» من بركة الجيش ، ونزل بظاهر القاهرة وقاتل أهلها قتالا عنيفاً .

نهاية الدولة الفاطمية:

وما أن وصلت استغاثات المصريين إلى نور الدين حتى أمر شيركوه بالتوجه إلى مصر ، وأسرع شيركوه الذى كان يتمنى هذه الفرصة ، فوصل إلى مصر فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ فاضطر الفرنج إلى الجلاء عن البلاد . وبذلك حقق نور الدين أمله فى ضم مصر والشام فى جبهة واحدة ، واضطر شيركوه إلى قتل شاور ، وطاف الجند برأسه فى شوارع القاهرة والناس لا يصدقون أنهم تخلصوا من هذا البلاء . وبذلك أمن شيركوه ألاعيب هذا الرجل الخطير وخيائته وغدره .

يذكر ابن واصل أن شاور كان يعتزم دعوة شيركوه وأصحابه إلى حفل عشاء ثم يقضى عليهم (مثلما فعل «الجمالى» فى مذبحة الجمالية) فلما علم «الكامل» ابن شاور نبأ المؤامرة نهى أباه عن ارتكابها ، وهدده بإبلاغ شيركوه بتفاصيلها ، وعندئذ قال الأب إنه إذا لم يبادر بالخلاص من شيركوه فسوف يكون مصيرهم القتل ، فرد الابن : إنه خير لنا أن نقتل والبلاد فى أيدي المسلمين من أن نقتل والبلاد فى يد الفرنج ، وأنه إذا سمع الفرنج بالقبض على شيركوه يبادروا باحتلال مصر ، ولن يقبل نور الدين نجاتها بعد قتل رجاله .

وبذلك انطوت آخر صفحة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وهى

الصفحة التي تلتطخت بالصراع الدموي بين شاور وضرغام، والتي كانت أسوأ ما شهدته مصر من أحداث كانت تبيجتها نهاية الدولة الفاطمية، أو كما يقول المقرئى: إن البلايا والمنايا من حيثئذ تابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتى لم يبق منهم عين تطرف. ويصف الشاعر «عمارة» اليمنى السنوات التي قضاها شاور فى وزارته بأنها «كثيرة الوقائع والنوازل» وأنه فيها «انكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضبه الدهر وعضبه، وأوجعه الشكل وأمضه، وبان غمره وثماره وجمره ورماده، ولم يجف من الأنكاد لبده، ولا صفا من الأقداء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة».

ويلخص عمارة أحوال مصر فى الهزيع الأخير من ليل الدولة الفاطمية:

«ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزك. . . ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام. . . ولا أتلف أموالهم مثل شاور.

ويسقوط الدولة الفاطمية، دخلت البلاد فى عهد جديد، واستطاع البطل الشاب صلاح الدين الأيوبي الذى خلف عمه فى منصب الوزارة، أن يسيطر على الأمور، ويعيد إلى مصر وجهها السنى، كما استطاع أن يصد حملات الصليبيين على دمياط، ثم وحد القوى الإسلامية فى جبهة واحدة، واستطاع ذلك القائد العظيم أن يطيح بالصليبيين، ويسترديت المقدس بعد مواقع بطولية خلدت اسمه فى التاريخ. . . وانتهت حياة الدولة الفاطمية فى هدوء أو كما يقول ابن الأثير «لم يتطح فيه عتران».

عمارة .. شاعر لكل العهود

كان الشاعر «عمارة» اليمني أكبر شاعر عرفته مصر في الحقبة الأخيرة من العصر الفاطمي ، فشهد التقلبات التي طرأت على نظام الحكم ، والصراعات التي دارت بين الوزراء الكبار من أجل النفوذ والسيطرة ، ورغم أنه كان فقيهاً سنياً على مذهب الشافعي ، إلا أن هواه ومصالحه دفعت به إلى مصانعه الوزراء الشيعة وعلى رأسهم الوزير القوي (الملك الصالح طلائع بن رزّيك) فنسج له أروع قصائده ، فلما دالت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي ، لم يجد «عمارة» في العهد الجديد ما كان يحظى به في العهد البائد ، وأدى به سوء تقديره لموازن السياسة إلى الاشتراك في مؤامرة للإطاحة بالعهد الجديد وإعادة الفاطميين إلى الحكم ، وانكشفت المؤامرة ولقى الشاعر «عمارة» حتفه مشوقاً على باب داره المظلة على الخليج .

كان عمارة بن علي بن زيدان ، يميناً نشأ في أسرة ذات سيادة في جبال اليمن ، وفي صباه رحل إلى مدينة «زبيد» لتلقى العلم على مشيوخها الشوافع ، وهناك زاره أبوه فوجده بلغ في العلم مبلغاً طيباً ، فضلاً عن براعته في قرض الشعر ، وعندئذ استحلفه ألا يهجو بشعره

أحدًا من المسلمين، وحلف عمارة ولكنه لم يبر بقسمه بعد أن طوحت به الرياح إلى مصر، وصار شاعرا للبلاط ومن أهم وظيفته أن يمدح سيده . . وأن يزوم خصومه . . . وهي وظيفة شعراء البلاط في كل عصر وحين، وكان «عمارة» قد ذهب إلى مكة لأداء الحج، واتصل بأميرها هاشم بن قاسم الحسنى، فلما توسم فيه الكياسة والسياسة أوفده إلى القاهرة برسالة إلى حكامها الفاطميين، وحين مثل أمام الخليفة «الفاقر» ووزيره «طلائع» أنشد أمامهما قصيدة طويلة مطلعها:

الحمدُ للعيسِ بعد العزمِ والهمم حمداً يقومُ بما أولتُ من النعم

ويقول «عمارة» في كتابه (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) إن الوزير «طلائع» استحسن القصيدة حتى استعاد إنشادها مرارا، والكبراء في المجلس يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ودفع له «طلائع» خمسمائة دينار . . . وبعثت له الشريفة عمة الخليفة خمسمائة دينار أخرى. قال: وحملت المال معى إلى منزلى، وأطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد من قبلى، وتنافس الأمراء على دعوتى إلى منازلهم للولائم، واستحضرنى «طلائع» للمجالسة، ونظمنى فى سلك أهل المؤانسة واثالت على صلاته، وغمرنى بره.

وعاد «عمارة» إلى مكة ومنها إلى مسقط رأسه باليمن، ولم تبرح خياله ذكريات الأيام السعيدة التى قضها فى مصر، وما قوبل به من حفاوة وكرم، وأخذ يتحين الفرصة للعودة إليها مرة أخرى ليتخذ منها موطنًا ومقامًا، وجاءت الفرصة عندما ذهب إلى الحج للمرة الثانية، فكلفه أميرها بحمل رسالة إلى الوزير «طلائع» يعتذر فيها عما تعرض

له الحجاج المصريون من نهب وسلب، وجاء «عمارة» إلى القاهرة وهو ينوى البقاء فيها إلى الأبد، ووجد عند الوزير «طلائع» الملاذ الآمن، والركن الحصين، والصدر الخنون، وصار ملازما له في مجلسه، وطابت نفسه لما كان يجرى في مجلس الوزير من أحاديث الأدب والعلم والسياسة، لولا ما كان يصدر عن بعض الحضور من تعريض بصحابة الرسول - ﷺ - جريا على عادة الشيعة في سب الشيخين أبي بكر وعمر. ذلك أن الوزير «طلائع» كان من أشد المتعصبين لمذهب الشيعة الإمامية، وكان جلساؤه يصانعون بالتطاول على الصالحين، ولم يكن ذلك مما يرضى الشاعر «عمارة» الأمر الذي اضطره إلى مقاطعة مجلس الوزير.

يقول عمارة: وكانت تجرى بحضرة الوزير مسائل ومذاكرات يأمرني بالخوض مع الجماعة فيها، وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ونهضت فخرجت، فأدركني الغلمان، فقلت: حصاة يعتادني وجعها. فتركوني. وانقطعت في منزلي أياما ثلاثة، ورسوله كل يوم والطبيب معه، ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان في خلوة من الجلساء، فاستوحش من غيبتى، وقال: خيرا. فقلت: إني لم يكن بي وجع، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر، فإن أمر السلطان بقطع ذلك.. حضرت، وإلا فلا.. وكان لى في الأرض سعة، وفي الملوك كثرة، فعجب من هذا وقال: سألتك بالله.. ما الذى تعتقد فى أبى بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولا هما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم. وإنه

ما من مسلم إلا ومحبتهم واجبة عليه، ثم قرأت قول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فضحك. وكان مرتاضا حصيفا. قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

«طلائع».. مجلدا ضد الفرنج،

إلا أن هذه العادة السيئة التي سلكها الوزير «طلائع»، لا تقلل من شأنه في التصدي للصليبيين في الشام. فقد كان آخر الوزراء الفاطميين الذين حركوا الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج في «صور» وأسر كثيرا منهم، ويذكر الدكتور أيمن فؤاد سيد في كتابه (الدولة الفاطمية.. تفسير جديد) أن الوزير «طلائع» أدرك أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة المملكة اللاتينية في بيت المقدس فأرسل إلى «نور الدين» صاحب دمشق يطلب إليه توحيد جهودهما، وكان رسول «طلائع» في هذه المهمة الأمير الشاعر «أسامة بن منقذ» الذي تبادل معه مجموعة من القصائد لتسهيل مهمته لدى نور الدين، وخلق نوع من التعاون بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج في الشام، وتأكيدا لنيته بعث إلى نور الدين بهدية من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وسبعة ألف دينار ذهباً عوناً له على قتال الفرنج، ولما تبوء الفرنجة إلى خطورة هذا التحالف، بعثوا رسولا إلى القاهرة ومعه هدية لطلب الهدنة، ولكن الصالح رفض ذلك، واستمر على مساندة نور الدين، وكان من الطبيعي أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان، ولكن اختلاف المذاهب الدينية حال دون ذلك.

والى الصالح طلائع يرجع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين فى القاهرة، وهو الجامع الذى لا يزال قائما إلى الآن خارج باب زويلة، وكان «طلائع» يطمح فى تحويل الخلافة الفاطمية فى نسله . كما فعل بدر الجمالى . فاختر أصغر الأمراء الفاطميين وأجلسه على عرش الخلافة وأطلق عليه اسم «العاضد» . وزوجه من ابنته، عسى أن ترزق منه بولد فيجتمع لبنى رزك الخلافة مع الملك . ولم تقبل نساء الأسرة الفاطمية هذا الإجراء، فدبرت «ست القصور» عممة العاضد مؤامرة لاغتيال الوزير «طلائع» حتى تربص به الغلمان فى دهليز القصر وقتلوه فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ . وكانت آخر كلمات «طلائع» وهو يلفظ آخر أنفاسه، أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شاة الفرنج . . وتحذيره ابنه «العادل رزك» من «شاور» حاكم الصعيد الذى لا يؤمن غدره .

وجاء مصرع الوزير «طلائع»، وابنه من بعده، صدمة للشاعر «عمارة» اليمنى، فأطلق لقريحته العنان لتعبر عما فى نفسه من لوعة وشجن لفقد أعز الأحباب إلى نفسه . وكان مما قال فى مراثيه :

تتكَّد بعد الصالح الدهرُ فاغتدتُ	مجالسُ أيامى وهنُ غيوبُ
أيجدبُ خدًى من ربيع مدايمى	وربمى من نُعمى يديه خصيبُ
وإن برقتُ سنًى لذكر حكايةٍ	فإن فسؤدى ما حييتُ كئيبُ

يقول الدكتور محمد زغلول سلام فى تأريخه للأدب الفاطمى إن «عمارة» ظل كئيبا بعد مصرع الصالح، وإن ضحكت منه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة فى هذه المرحلة من تاريخ

الفاطمين ، فقد كثر فيها الطامعون ، واقتتل الأعوان ، واغتال الخدم والأصحاب بعضهم بعضا . . فقد شارك «ضرغام» فى قتل «رزيك» . . ثم ظهر «شاور» وقتل ضرغام . ثم جاء صلاح الدين فقتل شاور . واضطر «عمارة» أن يجارى الأحداث . وأن يداهن أحيانا . ولكنه ظل على ولائه للفاطمين ، ولطلائع وابنه وعشيرته . . وكان وفاؤه سببا فى نهايته المؤلمة .

وفاء منقوص:

ولكن وفاء الشاعر «عمارة» لآل رزيك لم يكن حقيقيا كما يتصور الدكتور زغلول سلام . . ذلك أن «عمارة» لم يكذب يعلم بجلوس «شاور» على دست الوزارة حتى هرع إليه لينشد له قصيدة يتقص فيها من قدر آل رزيك ويغض من شأن لياليهم التى زالت ويعتذر فيها عن تعظيمه لهم . . ومنها قوله :

زالت ليالى بنى رُزَيْكَ وانصرفتُ والحمدُ والذمُّ فيها غير منصرم
كان (صالحهم) يوما و(عادلهم) فى وسط ذا اللُمتِ لم يقعد ولم يقُم
كنا نظنُّ وبعضُ الظنِّ مائمهٌ بأن ذلك جمعٌ غير منهزم
وما قصدتُ بتعظيمى عليك سوى تعظيمُ شأنِكَ فاعذرنى ولا تُلُم
وبالغ «عمارة» فى تعظيم شأن «شاور» حتى جعل منه حارسا آمنا على نصرة الفاطمين الذين أسماهم (آل محمد) وخلع عليه من أوصاف الشجاعة والإقدام ما لا يجود به الزمان على غيره فقال :

ضَجِرَ الحديدُ من الحديدِ و«شاوَرُ» فى نصر آلِ محمدٍ لم يَضْجِرِ
حلفَ الزمانُ لِيأتينَّ بمثله حثتُ يمينُك يا زمانُ فكُفِّرِ
ولكن . . بعد أن انتصر «ضرغام» على «شاوَر» وخلعه من الحكم،
حثتُ عمارةَ يمينه . . وانطلق يقول فى ضرغام:

وأحقَّ من وزَرَ الخِلافةَ من نشأ فى حضرة الأكرام والإجلالِ
واختصَّ بالخلفاء وانكشفَ له أسرارُها بقرائنِ الأحوالِ
وتصرفَ الوزراءُ عن آرائه كتصرفِ الأسماءِ بالأفعالِ
ثم ما لبث ضرغام أن لقي مصرعه على يد شاوَر، وفتح عمارة
نافذة بيته فرأى الناس يحملون رأس ضرغام ويطوفون بها الشوارع
فهاهنا المشهد . فأنشد:

أرى حَنَكَ الوزارةِ صارَ سيفاً يحدُّ بحدِّه صيدَ الرقابِ
كانكَ رائدُ البلوى وإلا بشيرٌ بالمنية والمصابِ

وعاد شاوَر إلى السلطة بعد تسعة شهور من إبعاده، ولم يتخرج
«عمارة» من مدحه مشيراً إلى فترة الشهور التسعة التى هى مدة الحمل
والتي كان نهايتها شهر جمادى . . فقال مخاطباً شاوَر:

ونزعتَ مُلكك من رجالٍ نازعوا فيه وكنْتَ به أحقُّ وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزلْ حتى كسوتَ القومَ أرديةَ الردى
تاريخُ هذا قتلته فى مثله يوماً ييوم، عبرةٌ لمن اهتدى

حصلت به الأيامُ تسعة أشهرٍ حتى جعلن له جُمادى مولدا
ثم جاء صلاح الدين الأيوبي ليقضى على هذا العبث، ويقتلع
الدولة من جذورها، وكان على «عمارة» أن يستقبل النظام الجديد بما
فطر عليه من مديح وإطنا ب، ولكنه لم يكن صادقا فى مديحه
وإطرائه، ربما لأنه لم يجد عند صلاح الدين الأعطيات والمنح التى
كان يلقاها من والوزراء الفاطميين حتى أنه ألقى قصيدة أشاد فيها
بمناقب صلاح الدين، ولكن المؤرخين الذين أرخوا له - مثل الصفدى -
رأى أنها كانت مدحا مطويا على الذم مغلف بالهجاء . . ثم يقول:
الذى أظنه وتقضى به المعيتى أن هذه القصة كانت من أسباب شنقه،
والله أعلم، لأن الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الحقد ولا يواجهون بهذه
الألفاظ، وهذا الإدلال الذى يؤدى إلى الإذلال . . إلخ والقصيدة
طويلة ومليئة بالغمز واللمز . . والرجاء إلى صلاح الدين بأن يرفق
بالفاطميين .

ولم يقف عمارة عند حد الرجاء وطلب الصفح عنهم إنما جمع به
الطموح إلى إعادة الدولة الفاطمية، فاشترك فى مؤامرة لإعادتهم،
ومعه جماعة من ذبول الفاطمية، كاتبوا الفرنج وحرصوهم على غزو
مصر وقتل صلاح الدين ولكن أحد المشتركين فى المؤامرة وشى بهم
إلى صلاح الدين، فقبض عليهم وعقد مجلسا من الفقهاء لمحاكمتهم
فأفتوا بإعدامهم، ومن المقارقات الغريبة ما يرويه «أبو شامة» فى كتابه
(الروضتين) أثناء محاكمة «عمارة» . فقد مال «القاضى الفاضل»
الأديب المعروف، على رأس صلاح الدين متشفعا فى «عمارة» ولكن
«عمارة» ظن أنه يغريه بقتله، فقال للسلطان: مولانا . . لا تسمع

منه . . فإنه عدوى (!!) فغضب القاضي الفاضل وغادر المجلس ،
وعندئذ قال صلاح الدين لعمارة : إنه كان يشفع فيك . . وقد قبلنا
سؤالك فيه . . ثم ساقوه ليشتق على باب بيته ، فطلب أن يروا به على
بيت القاضي الفاضل واسمه «عبدالرحيم» . وكان جالسا على باب
بيته ، فلما رأى عمارة مخفورا ، دخل بيته وأغلق بابه ، فصاح عمارة
بآخر أشعاره :

عبدالرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب

وكانت تلك نهاية شاعر كبير عصفت به تقلبات السياسة
وغدراتها .

المسار الأخير تواطؤ الفاطمية مع الصليبية

جاءت الحملة الصليبية الأولى فى ختام القرن الحادى عشر، فدفقت آخر مسمار فى نعش الدولة الفاطمية، وتسببت فى ضياع هيبتها، وأسقطت القناع عن وجهها الحقيقى فظهرت نواياها المعادية للإسلام والمسلمين فى العالم السنى، وفقد الفاطميون اعتبارهم الأدبى والمعنوى ليس فقط لأنهم عجزوا عن التصدى للصليبيين، ولكن لأنهم تواطؤوا معهم، وشجعوهم على التوغل فى بلاد الشام للقضاء على عدوهم المشترك، وهم الأتراك السلاجقة، وعقد الفاطميون اتفاقا مع الصليبيين لاقتسام الشام بينهما، ولكن الفرنجة خدعوهم وشقوا طريقهم نحو الأماكن المقدسة فى فلسطين وهى الهدف الرئيسى للحملة، وفى يوم الجمعة ١٥ يولية من عام ١٠٩٩ احتل الصليبيون القدس، وارتكبوا المذبحة التى لطخت وجه أوربا إلى الأبد، وذبحوا سبعين ألفا من المسلمين لاذوا بالمسجد الأقصى، بينما وقف الفاطميون يتفرجون، ويشاهدون مدن فلسطين تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدي الدخلاء القادمين من أوربا.

عندما ظهرت طلائع القوات الصليبية فى أكتوبر عام ١٠٩٧ أمام

مدينة أنطاكية في أقصى الشمال السوري اكتفوا بحصارها بعد أن ظهرت لهم مناعة حصونها، وراح حاكمها التركمانى «ياغى سيان» يستغيث ويستنجد بحكام الدول والإمارات الإسلامية لفك الحصار، وإنقاذ المدينة من الوقوع فى أيدي الصليبيين، وبلغت الاستغاثة الديار المصرية وهى يومئذ تحت خلافة «المستعلى» ووزيره صاحب الأمر والنهى هو فى نفس الوقت خاله «الأفضل شاهنشاه» ابن أمير الجيوش بدر الجمالى، وبدلاً من أن يرسل «الأفضل» تجريدة عسكرية للمشاركة فى طرد الصليبيين، بعث بسفارة دبلوماسية محملة بالهدايا والنفائس إلى قادة الحملة الصليبية تعبيرا عن مشاعر الود، ومع السفارة عرض بأن يقتسم الطرفان بلاد الشام، فيكون للصليبيين شمالها، وللفاطميين جنوبها بما فيها فلسطين وبيت المقدس وتلقى الصليبيون السفارة بالموودة والترحيب، وعاد الوفد الفاطمى إلى القاهرة مصحوباً بوفد صليبي ليرد التحية بأحسن منها، أما عن العرض الفاطمى باقتسام الشام، فإن الصليبيين لم يرفضوه ولم يقبلوه، وتركوا البت فيه لمجرى الأحداث التى سوف تقع، بما يعطيك فكرة عن مهارة الصليبيين فى المناورة والتمويه والخداع. فهم لم يلتزموا بشيء يغرقهم عن الوصول إلى هدفهم الأخير، الذى من أجله غادروا ديارهم فى غرب أوربا، وتحملوا المشاق والضنك والجوع طوال رحلتهم المضنية، وهو الوصول إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين.

❖ لم يفتن الفاطميون إلى حقيقة الحركة الصليبية، وظنوا أن هدفها مقصور على استرداد المدن الشامية التى كانت فى حوزة الدولة

البيزنطية ، قبل أن يستولى عليها الأتراك السلاجقة . وغاب عن وعيهم الأهداف الصريحة التي أعلنها البابا «أوربان» قبل عامين ، ودعا فيها المسيحيين في كل أنحاء أوروبا إلى حرب مقدسة تحت شعار الصليب لاستخلاص الأماكن المسيحية من أيدي المسلمين .

* فهل كان الفاطميون على هذه الدرجة من السذاجة والغفلة عن مرامي الحركة الصليبية؟ أم أنهم كانوا يدكونها، ولم يجدوا حرجاً في قبولها طالما أنها ستؤدي إلى تصفية عددهم المشترك وهم المسلمون السنيون في الشام، ولا يضيرهم أن تخلص الشام إلى الصليبيين، فذلك أفضل عندهم من أن تظل في أيدي الأتراك المسلمين وهو يتفق مع نظرتهم المذهبية الضيقة (١١).

إدانة صريحة:

المؤرخون القدامى كانوا من الشجاعة بحيث أدانوا الفاطميين، ووجهوا إليهم اتهاماً صريحاً بالتواطؤ مع الصليبيين، بل دعوتهم للقدوم إلى الديار الإسلامية لتحقيق ما عجزوا هم عن تحقيقه . فالمؤرخ «ابن الأثير» في كتابه «الكامل» لم يتردد عن اتهام السلاجقة، فذكر في حوادث ٤٩٠هـ: أن أصحاب مصر الفاطميين لما رأوا إمرة الدولة السلجوقية، وتمكنها، واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول مصر: خافوا.. فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها، ويكونوا بينهم وبين المسلمين .

أما المؤرخ المصرى جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردى فيبدي تعجبه من موقف الفاطميين السلبى من الغزو الصليبي، كما يبدي حيرته من عدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن إنطاكية، فيقول فى (النجوم الزاهرة):

ولم ينهض الأفضل بإخراج العساكر المصرية، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال، ثم يسترسل فى وصف سوء حال الصليبيين عندما زحفوا على الشام، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدّهم «كل ذلك وعساكر مصر لم تنهيا للخروج».

وملاحظة أبى المحاسن فى محلها، فقد كان موقف الصليبيين أثناء حصار إنطاكية فى غاية السوء، وتعرضوا للمجاعة والأمراض، وتخلّى «الكسيوس كومنين» إمبراطور الدولة البيزنطية عن مدّهم بالغذاء والسلاح حتى اضطر بعضهم إلى العودة من حيث جاءوا، وكان من الممكن تصفية هذه الحملة الأولى لو توفرت لها المواجهة الجدية، ولكن أمراء الشام دب بينهم الخلاف، واتخذ حكام مصر الفاطميون موقف المتفرج، بل الشامت المغتبط لما يجرى فى شمال الشام، ظناً منهم بأن النتيجة ستكون فى صالحهم، وفى ذلك يقول الدكتور سعيد عاشور عميد مؤرخى العصور الوسطى: الحقيقة أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها، وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة فى شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس منهم، وتحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعاً، وليس أدل على صحة هذا الرأى من أن الفاطميين

انتهزوا فرصة الارتباك الذى ساد الديار الشامية، ويعث «الأفضل» بحملة عسكرية استولت على بيت المقدس من الأتراك السلاجقة.

وبعبارة أخرى: لم يجد الفاطميون فى الانتصارات التى أحرزها الصليبيون فى آسيا الصغرى وإنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذى سادوه قرابة نصف قرن من الزمان، استشاروا فيها كراهية العرب والمسلمين جميعاً، الشيعة والسنة على السواء، وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة فى تلك اللحظات التى وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار دون أن يستطيع أمراء الشام منع تقدمهم، وربما اعتقدوا أن ساعة الانتقام من السلاجقة قد أزفت.

روح العداء المنبئية:

* ومن المؤرخين من يرى أن الاتصالات السرية بين الفاطميين والبيزنطيين بدأت قبل أن تصل الحملة الصليبية الأولى إلى مشارف الشام، فيقول الدكتور محمد مصطفى زيادة إن روح العداء المذهبية اشتدت بين الخلافة الفاطمية (الشيعة) والدولة السلجوقية (السنية) وقد رأى الإمبراطور البيزنطى «الكسيوس» استغلال هذا الشقاق، والاتفاق مع الفاطميين على اقتسام الممتلكات السلجوقية فى الشام، وأرسل إلى القاهرة بتفاصيل وخطة الحملة الصليبية الأولى، أى أن اتصالات الفاطميين لم تقتصر على الصليبيين، وإنما شملت كذلك البيزنطيين.

* فهل كان العداء المذهبي - مهما استحكم - يبرر التفريط في أرض العرب ومقدساتهم، لحساب أعداء العرب؟

إن الجواب على السؤال يستوجب إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التي مرت بها بلاد الشام قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى، وبعد أن صار الشام مسرحاً للصراع بين الفاطميين والأتراك السلاجقة.

أما عن الفاطميين، فالمعروف أنهم أصحاب دعوة مذهبية باطنية جعلوها محور وجودهم، ومبرر بقائهم، وسخروا كل إمكانياتهم السياسية والعسكرية والدعائية من أجلها وجعلها هدفهم الاستراتيجي وهو الإطاحة بالخلافة العباسية في بغداد، ومن أجل ذلك جاءوا إلى مصر، ثم قفزوا إلى الشام باعتبارها القنطرة التي سوف تحملهم إلى العراق، ولكن حدث أن ظهر الأتراك السلاجقة في الجناح الشرقي للدولة العباسية، وصارت سيوفهم هي الدرع الذي يقى دولة الخلافة من السقوط في أيدي الدعوة الإسماعيلية الفاطمية التي انتشرت في العراق واكتسبت أنصاراً عديدين، وباتت قاب قوسين من النجاح.

والسلاجقة فرع هام من قبائل «الغز» التركية التي اعتنقت الإسلام على المذهب السني، وتكونت منهم قوة عسكرية خطيرة استطاعت أن تفرض نفسها على الدولة العباسية، وفي سنة ٤٤٧ هـ استطاع زعيمهم السلطان «طغرل بك» أن يدخل بغداد على رأس جيوشه الجرارة. ووجدت فيه دولة الخلافة طوق النجاة من السقوط في مرحلة من أدق المراحل التاريخية، حين أعلن قائد عسكري انتهازي

اسمه «البساسيري» انتماءه الصريح إلى الدعوة الفاطمية في مصر، وجعل الخطبة للخليفة «المستنصر» وتبعه خلق كثير، وفي هذه اللحظة الحرجة ظهر الأتراك السلاجقة فحافظوا على هوية الخلافة، وطاردوا الإسماعيلية في معقلهم، وقامت بينهما حرب ضروس كان أخطرها حركة الحشاشين بزعامة الحسن الصباح الذي كان يبعث بأتباعه (الفدائيين) من مكنته في قلعة (آلوت) لاغتيال الخلفاء والسلاطين والوزراء وكبار القادة العباسيين والسلاجقة، وفي نفس الوقت وقعت المواجهة بين السلاجقة والبيزنطيين بعد أن توغل السلاجقة في الشام، حتى وصلوا إلى آسيا الصغرى فأقاموا فيها إمارة اشتهرت باسم دولة الروم السلاجقة على حساب الدولة البيزنطية، ومنذئذ صار الشام ميدان الصراع بين القوى الثلاث: السلجوقية والبيزنطية والفاطمية. وفي عصر السلطان «ألب أرسلان» نجح السلاجقة في انتزاع بيت المقدس من الفاطميين، وظل في حوزتهم إلى أن جاءت الحملة الصليبية الأولى، فانتهزها الفاطميون لتصفية حسابهم مع السلاجقة، ودارت الرسائل بين الفاطميين والصليبيين لاقتسام الشام وطرده السلاجقة، وأبدى الصليبيون مهارة سياسية فائقة في خداع الفاطميين، وتركوهم على عماهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين، وتركوا الأفضل يتقدم على رأس جيشه نحو القدس، وهم يبيتون العزم على احتلالها تحقيقاً للغرض الذي جاءوا له.

الأفضل يضيق من سكرته:

• وليس أدل على براعة الصليبيين في خداع الفاطميين مما حدث

بعد أن صدم الفاطميون في حركة الجيوش الصليبية، وهي تتوغل في الشام وتتجه إلى القدس، عندئذ أفاق الأفضل من سكرته، ووجد أنه سيكون وجهها لوجه أمام أصدقاء الأمس، وأعداء الغد، ولا مناص من الصدام بينهما، ولكن الأفضل اكتشف الحقيقة المرة بعد فوات الأوان وبينما الصليبيون في طرابلس - في طريقهم إلى القدس - بعث إليهم الأفضل بسفارة ثانية محملة بهدايا وأموال هائلة تفوق ما حملته السفارة الأولى، كما أن العرض الجديد يختلف عن العرض السابق، وفحواه أن يمتنع الصليبيون عن دخول القدس على أن يتعهد الفاطميون بالسماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى الأماكن المقدسة في شكل مجموعات صغيرة تتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة حاج، بشرط أن يكونوا منزوعى السلاح، ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا... ولكن بمعونة الله... ودون وصاية من أحد!!

وكان معنى ذلك نشوب الحرب بين الطرفين من أجل القدس، فلما بلغ الصليبيون مدينة الرملة الفلسطينية في أوائل يونية ١٠٩٩م عقدوا مجلسا بحثوا فيه خطة الحرب، وفي هذا المؤتمر طرحت فكرة العدول عن غزو القدس، والتقدم نحو مصر أولا حتى يأمنوا جانبها، ويضمنوا لأنفسهم حياة مستقرة في المدينة المقدسة، ولكن أسفرت المناقشة عن استبعاد هذه المغامرة، وإن ظلت كما يقول الدكتور سعيد عاشور مستقرة في الاستراتيجية الصليبية إلى أن حان موعد تنفيذها فيما بعد - في العصر الأيوبي - بعد أن تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم في فلسطين، وأقاموا مملكة بيت المقدس وإمارات الرها

وطرابلس وإنطاكية، وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة.

وفي يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م حدث الهجوم الشامل، ولم يسع الجند المدافعون المسلمون سوى الفرار والاحتباء بالمسجد الأقصى، فتبعهم الصليبيون وفتحوا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة.

✽ أما حاكم المدينة الفاطمي - واسمه إفتخار الدولة - فقد احتفى مع طائفة من جنده بحراب داود لمدة ثلاثة أيام، وأطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي القدس التي نجت من المذبحة التي قتل فيها سبعين ألفاً، فلم يترك الصليبيون مسلماً في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل، ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتفى به من المسلمين «ومنهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان، وجاوروا بذلك الموضع الشريف، على حد قول ابن الأثير، ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس «تحولت إلى مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم» وذكر مؤرخ صليبي آخر حضر تلك المأساة أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة وإن الدعاء بلغت ركبتيه، ولم يكن اليهود أحسن حالاً من المسلمين، إذ «جمع اليهود في الكنيسة

وأحرقوها عليهم» وكل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوربيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحه يوليو ١٠٩٩م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة.

ضياع الفاطميين:

أما الدولة الفاطمية فقد تلقت أخبار النكبة في برود، وظلت تغط في سباتها العميق، وحاول الوزير الأفضل أن يفعل شيئا يحو به عار التواطؤ الذي أدى إلى الكارثة، فلما بلغه نبأ مسير الصليبيين نحو القدس، جمع رجاله وخرج إلى فلسطين على أمل أن يحول بين الصليبيين وبين دخولهم القدس، ولكنه وصل إلى عسقلان في يوم ٤ أغسطس، أي بعد عشرين يوما من استيلاء الصليبيين على القدس، وهكذا أصيب «الأفضل» بخيبة أمل كبيرة بعد أن اعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون باحتلال شمال سوريا، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة، ولم يسع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان سوى «أن يرسل رسولا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوا» على حد تعبير المؤرخ ابن ميسر، ولم يكن أحق بالتوبيخ من الأفضل نفسه، الذي جمع بين سوء النية، وضعف التدبير.

ومما يرويه «ابن الجوزي» في (مرآة الزمان) أنه بعد وصول الأفضل إلى عسقلان أضاع وقتا ثميناً «يتنظر الأسطول في البحر والعرب»، وعندئذ اكتشف الصليبيون أمره، فأطبقوا عليه بغتة، وحلت الهزيمة بالفاطميين، وتشتت شملهم بعد قليل، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا

سوى إلقاء أنفسهم فى اليم حيث غرقوا، فى حين احتفى البعض الآخر بشجر الحمير، فأحرق الصليبيون الشجر حتى هلك من فيه، وأما الوزير الأفضل فقد هرب من عسقلان ومعه بعض رجاله على ظهر سفينة فارين فى البحر إلى مصر وهكذا «تمكنت سيوف الأفرنج من المسلمين، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ونهب العسكر» كما يروى «ابن القلانسي» فى ذيل تاريخ دمشق، وعن هذه المعركة يقول الدكتور سعيد عاشور: وكان النصر المعنوى والأدى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان يفوق بكثير الغنائم المادية التى غنموها، وأدى إلى القضاء على هيبة الفاطميين فلم يجرءوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين، وقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدي الغزاة.

وإذا كان التواطؤ بين الفاطميين من ناحية، والصليبيين والبيزنطيين من ناحية أخرى، يلقي شبه إجماع تاريخى، إلا أن هذه الحقيقة تلقى معارضة من جانب بعض أساتذة التاريخ منهم الدكتور عبد المنعم ماجد الذى اجتهد فى كل دراساته التاريخية فى الدفاع عن سياسة الفاطميين وتبرير أعمالهم، فهو يرى أن الاتصالات التى أجراها الفاطميون مع الصليبيين الأوائل إنما كانت تهدف إلى وقف زحفهم بعد أن عجز السلاجقة عن صدّهم، وينفى بشدة أن يكون الفاطميون قد فعلوا ذلك بقصد خيانة المسلمين ويقول: لا نصدق ما قيل من أن الفاطميين خانوا المسلمين، وأنهم هم الذين استدعوا الصليبيين إلى الشام كما ذكر ابن الأثير، ويبدى دهشته من أن بعض المؤرخين

الحديثين يؤيدون ذلك، مثل : الدكتور حسين مؤنس ، والدكتور سعيد عاشور «الذى يستند فى معظم مصادره إلى مراجع حديثة» .

أما الأسس التى أقام عليها الدكتور ماجد نقضه لفكرة تواطؤ الفاطميين ، فتتلخص فى أنهم كانوا دائما حماة الإسلام ، وأنهم استماتوا فى الدفاع عنه حينما هاجم الروم الشام ، ويرى أن ابن الأثير نفسه يشكك فى روايته بدليل أنه يقول فى ختامها «والله أعلم» . وحتى لو أيدت المصادر الأوربية وقوع مفاوضات ، فإن هذه المفاوضات - فى رأى الدكتور ماجد - يحتمل أن تكون مع الروم وليس مع اللاتين (الفرنجة) وهى عادية فى سياسة الفاطميين الذين سبق لهم عقد معاهدات مع الروم البيزنطيين . أما المفاوضات مع الحملة الصليبية الأولى فإن ماجد يشك فيها - رغم اتفاق المصادر العربية والإفرنجية على وقوعها - ويقول : حتى إذا صحت فإنها كانت فى مصلحة الإسلام ، لأنها جعلت المعسكر المسيحى ينقسم على نفسه ، ويورد الدكتور ماجد عددا من حوادث الخلافات التى وقعت بين الصليبيين والبيزنطيين . ولكن الباحث التاريخى المحايد لا يجد للفاطميين يدا فيها ، لأنها تعود إلى الشكوك التى كانت قائمة بين البيزنطيين والفرنجة ولم تنقطع منذ اجتيازهم ممتلكات الدولة البيزنطية ، ولم تنجح السياسة الفاطمية فى استثمار هذه الخلافات لوقف الزحف الصليبي حتى دخلوا القدس .

الفهرس

المقدمة	٥
التفاريح والتباريح	٧
الأزهر.. الأثر الباقي	١٩
قاهرة الدنيا	٣٢
يا أملا بالفواطم	٤٣
الحاكم بأمر الشيطان	٥٢
مولد الدرزية	٦٤
عصر المستنصر بداية النهاية	٨٢
مذبحة الجمالية	٩٠
ست الملك	٩٧
فرقة الحشاشين	١٠٤
الخليفة في المقطف	١١٢
شاور وضرغام.. صراع الديوك	١٢٠
عماره شاعر لكل العهود	١٢٩
المسمار الأخير	١٣٨

رقم الإيداع ٢٧٢٤ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولي 1 - 1048 - 09 - 977 I.S.B.N.

مطابع الشروق

القاهرة ٨: شارع مسيوه المصرى - ت: ٤٠٢٢٢٩٩ - فاكس: ٤٠٢٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الفاطمية

دولة الفراعنة واليهود

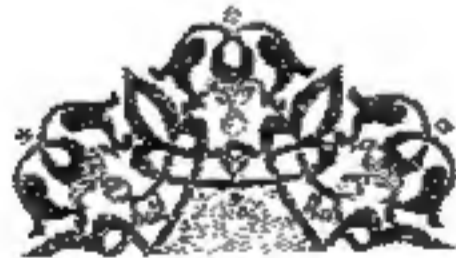
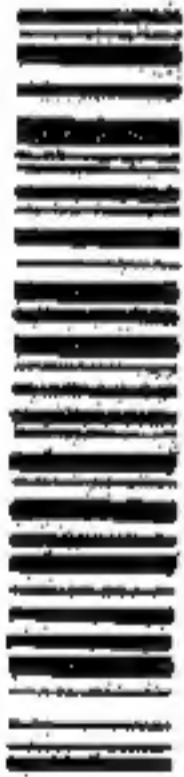
ليس هذا الكتاب سجلا لتاريخ الدولة الفاطمية التي حكمت مصر زهاء قرنين، ولكنه محطات توقفت عندها وأنا أصاحب هذه الدولة من بدايتها إلى نهايتها. وتركت في الوجدان المصري أثارا لا تزال ماثلة في الثقافة الشعبية.

ويغفل الناس عن الدعاوى الدينية والمذهبية التي جاء بها الفاطميون على أسنة الرماح، وفرضوها على الشعب بمقتضى حق الفتح الذي يعطى للدولة الغالبة سلطة تغيير الموروث الثقافي والاجتماعي، وما كان للفاطميين أن في غلبة مصر لولا ضعف النظام الحاكم، وغفلة المحكوم.

إنه درس لا ينبغي أن نتساه.

وهو أن التهاون في الدفاع الوطني، والاستقلال
يؤدي إلى ضياع الوطن.. وخضوعه لكل طارق

Bibliotheca Alexandrina

[illegible]